الشيخ محمد متولى الشعراوى

مريم والمسيح



عنيت بطباعته ونشره

مكتبة التراث الاسلامى

الشيخ محمد متولى الشعراوى

مريم والمسيح

جمع وإعداد وترتيب
عبد القادر أحمد عطـــا

مكتبة التراث الإسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤ شارع صفية زغلول - قصر العينى - القاهرة

مقدمة

لم يرسل الله سبحانه إلى أمة من الأمم عدداً من الرسل قدر ما أرسل إلى بنى إسرائيل . ولم يقم الحجة بالآيات الواضحات ، والبينات الغيبيات مثلما أقامها على بنى إسرائيل .

وبرغم كل ذلك فالقوم هم القوم ، حرفوا كل الشرائع والكلمات حتى تتناسب مع ميولهم وأهوائهم . حتى الله سبحانه وتعالى حرفوه من حق غير محسوس ولا مدرك بالأوهام إلى إله شعبى يشبه زعيم الحزب السياسى ، ينزل على رأى الأغلبية ، ويسعى إلى صالح الطبقة والعنصر ، ويحب رائحة الشواء . ويلعب مع حيتان السمك فى البحر .

ومنذ عهد نبى الله يعقوب والحرب بين الوثنية والوحدانية الغيبية قائمة . حتى أنه عليه السلام قام بحملة تفتيشية ، وجمع كل الآلهة المنزلية . ثم دفنها كلها عند البطمة التى عند « شكيم » كما هو وارد فى العهد القديم .

ويذكرنا القرآن الكريم بأنهم كانوا يعبدون إلهاً يسمى « البعل » وذلك فى قوله تعالى :

(أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين)

وهذا البعل هو ما جاء فى التوراة باسم « البعليم » .

وكانت آخر الآيات هى ظهور المسيح من مريم العذراء وحدها بلا أب . وعلى غير الوظيفة التى أرادها بنو إسرائيل . إذ كانوا يريدون مسيحاً بالفعل . ولكنهم كانوا يريدونه ملكاً زمنياً يحكم العالم باسمهم . لا أن يكون رسولا يحكم القلوب باسم الله الواحد الأحد .

وواجهوا هذه الآية باتهام العذراء بالخنا والفحش . وبرفض المسيح وانتظروا مسيحهم المزعوم . حتى قالت طائفة من طوائفهم المتأخرة . وتدعى « شهود يهوه » إنه قد بعث بالفعل فى عام ١٩١٩ من الميلاد . وإنه

قد اختار معاونيه لحكم العالم باسم اليهود ، وإنه فى فلسطين يقيم فى مغارة ، ولا يلقاه إلا من يدرب على ذلك على أيدى الخبراء من أهل هذه الجماعة . وسجلوا كل هذه الأوهام فى كتاب من كتبهم اسمه « الحق يحرركم » طبع فى بروكلين بعدة لغات ، والطبعة العربية مليون نسخة .

تلك لمحة سريعة عن أثر المسيح فى عقيدة اليهود ، إذا تجاوزنا عن السباب البشع الذى صبوه عليه وعلى أمه عليها السلام .

وكان رد الفعل عند أحباب المسيح وأتباعه تطرفاً ناشئاً عن حب ، كما كان رد الفعل عند أعدائه تطرفاً ناشئاً عن بغض .

ولما كان القرآن الكريم يؤكد أن النصارى هم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، فإن هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء هو ثمرة هذه المودة التى يؤمن بها المسلمون ، ويدينون بها نحو أتباع المسيح عليه السلام .

***(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون)* .**

ولقد عبر المسلمون عن مودتهم لأتباع المسيح حينما هزموا بأيدى الفرس ، فحـــزن المسلمون حزناً شديداً ، لأن أهل كتاب هزموا بأيدى وثنيين من عباد النار وسجل الله تعالى هذا الحدث فى أول سورة الروم فقال :

***(غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين)* .**

وما وصايا أبى بكر لجيوشه برهبان النصارى عنا ببعيد ، وما عهد بيت المقدس بين عمر وصاحب بيت المقدس بغريب على أذهاننا ، إلى جانب عشرات الوقائع والأحداث التى تنطق بالمودة بين المسلمين والنصارى ، وحرصهم عليهم ، وخوفهم على أخراهم .

ولئن كان اليهود قد نجحوا مؤقتاً فى بذر بذور الفرقة بين الفريقين فإنه نجاح مؤقت ما تلبث الأحداث أن تدمره ، وتعيد إليهما الوئام والمودة ، لا سيما عند الأحداث السياسية التى تبدو فيها النوايا التى لا تتجه نحو المحبة

والحياة الآمنة ، وإنما تتجه نحو تمكين عنصر واحد من بقية عناصر الأرض ، ليأخذ بخناق الجميع ، ويستذلهم ، ويستولى على مقدراتهم إلى الأبد باسم العنصر المختار .

ليس الجدل من طبيعة أتباع المسيح ، ولكن طبيعة أتباع المسيح هى ما قرره القرآن الكريم من أنهم كانوا إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تولوا وأعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .

وإنما الجدل هو طبيعة اليهود ، وقد عرض علينا القرآن نماذج من جدلهم ، ومنها موضوع البقرة ، مما يؤكد لنا أن ما أصيب به أتباع المسيح من الجدل إنما هو داء يهودى لا يلبث أن يزول ليعود أتباع المسيح إلى طبيعتهم التى تستجيب للغيب ، وتؤمن بالتواضع وعدم الكبرياء .

وهذا الكتاب من أحاديث فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى المسجلة بصوته ، وأصوله تحت أيدينا ، وليس لنا فيه سوى التبويب وإعداد الأسلوب ليكون أسلوب كتاب لا أسلوب حديث إلى الجمهور ، فالحديث إلى الجمهور يختلف عن الحديث فى كتاب كما هو معلوم للجميع .

لا تغيير فى كلام الشيخ ، وإنما هو تقديم وتأخير ، وحذف للمكررات واستبدال كلمة عامية اقتضاها المقام بكلمة عربية يقتضيها المقام .

والله نسأل أن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن يدوم الوئام بين أتباع المسيح وأتباع محمد عليهما الصلاة والسلام .

عبد القادر أحمد عطا

آل عمران المصطفون

معنى الاصطفاء :

قال الله تعالى :

*(إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض)* (١)

كلمة (اصطفى) تدل على اختيار يرضى . وبمعنى : خصه بنفسه ، أو أخذه صفوة من غيره فهى على أى حال تدل على الفضل العظيم .

وهنا سؤال : هل معنى الآية : أن الله اصطفاهم فكانوا طائعين من أجل هذا الاصطفاء ؟ أم إنه سبحانه وتعالى علم أزلا أنهم سيكونون طائعين فاصطفاهم ؟

والجواب : أن علم الله علم أزلى ، وليس علماً مترتباً على غيره . وأنت ساعة تأتى بقانونك البشرى ، وتولى إنساناً أمراً فينجح فيه ، تقول : ألم أقل لك إن فراستى صحيحة ؟ فإذا كان هذا فى البشر فما بالك بالله سبحانه وتعالى ؟

إذن فاصطفاء الله لآل عمران مع آدم ونوح وآل إبراهيم إنما كان لأنه علم أزلا أنهم سيكونون أخياراً ، أو أنهم كانوا أخياراً فى النفس العامة ، وسيكونون أخياراً حين يكلفون فى النفس الخاصة . . هم أخيار قبل التكليف ، لو تركتهم لعقولهم لكانوا أخياراً .

* * *

لماذا كان اجتباء الرسل ؟

وآدم حين خلقه الله ، وصنع له التجربة التكليفية فى الجنة ، كان الواجب أن ينقل ما علمه لأبنائه . لماذا نقل إليهم صيانة مادتهم من الطعام

---

(١) سورة آل عمران آيتا : ٣٣ ، ٣٤ .

والشراب وغير ذلك ؟ فالقيم كانت لابد أن تكون مع هذه المبادئ .

فهل أدى آدم ؟

أدى ، ولكن بمرور الزمان تبهت التكاليف رويداً رويداً حتى تنسى ، فالله من رحمته يجدد ، ويرسل رسولا برسالته تعطى من كان موجوداً أولا ما يتعلق بالعقائد والأخبار التى لا تتغير . أما الأحكام فيأتى فيها بالأحكام المناسبة للزمن . فإذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر يبقى الأمر على ما هو عليه .

أى إن الناس حين يفعلون المنكر يجدون أناساً يقومون فى وجوههم ، ويضربون على أيديهم ، فإن الحياة ما زال فيها الخير ، لأن مصافى اليقين فى النفس البشرية تأتى من أشياء ، هناك من توجد مصافى اليقين فى ذاته ، أى لا يكون قادراً على نفسه . فيعمل المعصية ، لكن تلومه نفسه فيرجع عنها ، فالمصافى اليقينية هنا فى نفسه .

وأحياناً تكون المصافى اليقينية فى غيره ، فى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر . فإذا امتنعت المصافى الاجتماعية وكانت المصافى الذاتية ممتنعة ولم يعد أحد يأمر بمعروف وينهى عن منكر ، فهنا لابد من رسول ينبه الناس بمعجزة .

وفى الرسالة المحمدية لما ختمت بها الرسالات . فهذا إعلام من الله تعالى بأن المصافى الذاتية حين تمتنع فى هذه الأمة ، فلن تمتنع المصافى الاجتماعية ولابد أن تكون هذه المصافى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإلا فقد كان لابد من رسول آخر . وهو لا يكون أبداً ، لأن الرسالات قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولأن الله أمن هذه الأمة بألا تمتنع فيها المصافى الاجتماعية ، ولذلك قال تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (١)

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١١٠ .

ومعنى هذا أن المصافى الاجتماعية ستظل موجودة . إذن فإن الغفلة حدثت بعد نوح . فحصلت الاصطفاءات .

* * *

من هم آل عمران :

جاء فى القرآن الكريم أن مريم هى ابنة عمران . فقال تعالى :

***(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا)*(١)**

وجاء فى القرآن كذلك أن الله اصطفى آل عمران على العالمين كما فى الآية التى ذكرناها فى الفقرة السابقة .

ومن المعلوم أن موسى عليه السلام هو موسى بن عمران ، وله أخت تسمى مريم ابنة عمران . فأى العمرانين وأى المريمين يريد الله باصطفائه ؟

أما عمران أبو موسى فأبوه يصفر ، بن قاهث ، بن لاوى ، بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم .

وعمران أبو مريم هو ابن ناثان ، بن سليمان ، بن داود بن إيشى ، ابن يهوذا ، بن يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم .

لقد حدث إشكال بين الدارسين فى العمرانين يريد الله باصطفاء آله .

وحين اختلف الدارسون لم يفطنوا إلى أن القرآن نبههم إلى أن المقصود هو عمران أبو مريم ، لأن السياق هو سياق مريم أم المسيح ، لا مريم أخت موسى ، ولأن الله تعالى قال : **(وكفلها زكريا) (٢)** . وزكريا كان أبوه معاصراً لناثان ، وهو مع ذلك زوج خالة مريم العذراء . وعلى هذا فقد انتفى الإشكال بين مريم أخت موسى ومريم العذراء أم المسيح .

* * *

ذريات مصطفاة :

أخبر الله تعالى فى سياق اصطفاء من اصطفاه أن هؤلاء المصطفين **(ذرية بعضها من بعض)** فهل المراد ذرية النسب ، أم ذرية القيم والهدايات ؟

(١) سورة التحريم ، آية : ١٢ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

لقد علمنا فى قصة إبراهيم أن أنساب الدم لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعتبرة هى أنساب القيم والدين . وذلك حين قال الله تعالى :

*(**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن**)* فلما أتمهن قال له : *(**إنى جاعلك للناس إماماً**)* . فقال إبراهيم : *(**ومن ذريتى**)* . فقال الله تعالى له :

*(**لاينال عهدى الظالمين**)* **(١)** .

لقد ردها الله عليه ، وتقرر حينئذ أن قوله تعالى : **(إماماً)** أى مقتدى فى الهدايات وعليه فالذرية هى ذرية الهدايات .

ويمضى الحق فى تعليمه لإبراهيم حين وقف ودعا ربه أن يعمر الصحراء من أجل ولده إسماعيل فقال :

*(**ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**)* **(٢)** .

أراد إبراهيم أن يطبق الحقيقة الأولى هنا فى مسألة الرزق ، فقال الله تعالى له : **(ومن كفر)** . رداً على إبراهيم حين قال : **(من آمن)** .

يقول الله : أنا الذى استدعيتهم للوجود ، فرزقهم عندى . إذن فالذرية ذرية الهداية . وحين يقول الله :

*(**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض**)* **(٣)** .

فليس المراد ذريات النسب ، بل ذريات القيم .

* * *

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٤ .

(٢) سورة : إبراهيم ، آية : ٣٧ .

(٣) سورة التوبة ، آية : ٦٧ .

منذورة حنــة

و « حنة » هي أم مريم العذراء ، وقد وقفت لتناجى ربها فى صفاء وطهر ينم عن إيمان صادق فقالت :

***(رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى)* (١) .**

محرراً ، أى : غير مملوك . كما يقال : حررت العبد ، أى : جعلته يتصرف كيف يشاء ، لا سلطان لأحد عليه . وكذلك حررت الكتاب ، أى : خلصته من الشوائب والزوائد وغيرها .

* * *

المولود المحرر :

ومطلب « حنة » من ربها أن يتقبل نذرها لما فى بطنها فيه مناجاة الله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة ؟

هى موجودة فى بيئة . وترى الناس يعتزون بأولادهم ، ويعيشون ليحكموا حركات أولادهم . وليحكم أولادهم حركاتهم ، وليكون الأولاد قرة عين لهم ، وعزا لهم فى الحياة . . وكل هذا لا تريده هى ، وإنما تريد أن يكون ما فى بطنها من الولد محرراً من كل هذا . أى لا تريد أن تربطه بذاتها ، ولا تربطه برعايتها ، لأن الإنسان مهما بلغ من اليقين فإنه بحكم الميل إلى أولاده يمكن أن يتجوز فى سلوكه .

ولكن كيف تتحكم امرأة عمران هذا التحكم فى ذات هى مثلها ؟

والجــواب : أنه طالما كانت لها الولاية على تلك الذات فلها هذا التحكم ، فإن بلغ الرشد خير ، فإما أن يجيز ما اختارته أمه ، وإما أن يرفضه .

هى لا تريد قرة العين ولا غير قرة العين من مقاصد الولد ، بل تريده محرراً لخدمة البيت المقدس ، مطالباً أن يكون محرراً ، وأن يكون ذكراً ، لأن خدم البيت كانوا من الذكور .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٥ .

والنذر أمر أريد به الطاعة فوق تكليف ما كلف المكلف ، من جنس ما كلف المكلف . . فالله فرض عليك خمس صلوات ، فنذرت أن تصلى لله عشراً أخرى ، فأنت ألزمت نفسك أن تصلى أكثر مما ألزمك الله ، ومما كلفك به ، ولكن من جنس ما كلفك المكلف .

فرض الله عليك صوم شهر من العام ، فنذرت أنت أن تصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع ، فرض عليك اثنين ونصفا فى المائة زكاة لمالك فنذرت أنت أن تخرج عشراً فى المائة ، أو تخرج مالك كله لله .

النذر إذن زيادة عما كلف المكلف ، ولكن من جنس ما كلفك الله . ونذر حنة امرأة عمران يعتبر أمراً زائداً لخدمة البيت ، فهل هو ينطبق على هذا التعريف ؟ .

نقول : نعم . . لأن خدمة البيت واجبة على الجميع ، فإن قام بها البعض سقطت عن الباقين ، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع ، فهى من التكليف ، ولكنه تكليف من فروض الكفايات .

والنذر يعطيك عشق العبادة لله ، لأنك لو لم تعشق ربك لما زدت على ما كلفك .

* * *

مريم تحت التربية الربانية :

لقد علم الله تعالى إخلاص « حنة » امرأة عمران فى ندائها لربها . . فقد كانت عارفة بأسرار النداء والدعاء ، فنادت ربها قائلة « رب » . ولم تقل : إلهى ، لأن الربوبية يلاحظ فيها التربية من البداية إلى النهاية ، أما الألوهية فهى خاصة بما فيه تكليف .

كانت امرأة عمران تقصد بنذرها لما فى بطنها ألا تربيه هى حتى يقدر على الخدمة ، بل كانت تقصد نذره من أول أمره ، بحيث لا تتنعم بطفولته كما تتنعم الأمهات . ومن هنا جاءها الرد من الله تعالى من جنس ما سألت ، ودليلا على إخلاصها فى مطلبها ، وفى ندائها لربها .

لقد تقبلها ربها بقبول حسن . والقبول هو : أخذ الشىء برضا .

والحسن شيء فوق الرضا ستلمحه فى تربية مريم العذراء . هو ليس قبولا عادياً ، ولكنه قبول حسن . ولهذا قال تعالى :

﴿ وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا ﴾ (١) .

فالإنبات الحسن يحمل ملحظين فى حياة مريم :

أولهما : أنها كانت تحت التربية الربانية منذ بدايتها الأولى فى بطن أمها ، كما يرعى الفلاح نباته بالعناية والنماء .

ثانيهما : أن إجابة الله لامرأة عمـــران دليل على إخلاصها . لأن الله اختص مريم بالتربية التى هى من خصائص الربوبية ، من الإنبات الحسن ، وكفالة زكريا لها .

* * *

الأنثى المنذورة مريم :

كانت امرأة عمران تريد ما فى بطنها ذكراً محرراً لخدمة البيت ، فلما جاءت بأنثى رأت أن ما كانت تريده لن يكون ، فقالت :

﴿ رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾ (٢) .

يعنى : إن لم أتمكن من الوفاء فلأن قدرك قد سبق فى أنه غير منذور .. هى لا تريد أن تخبر الله تعالى بأنها وضعت أنثى ، ولكنها تتحسر لأن الغاية من نذرها لم تتحقق . ربما يسأل سائل فيقول : كيف تخبر الله بأنها وضعت أنثى ؟ أو ليس الله يعلم بذلك ؟

نقول : بلى يعلم ، بل إنها كانت تحب أن يكون ذكراً منذوراً للبيت ، فهى تتحسر ، لأنها كانت أنثى . فإن لم تقدر على الوفاء . فلأن الله عز وجل قدر أن تكون الوليدة أنثى .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٦ .

مريم فى خدمة العقيدة

ليس الذكر كالأنثى :

حينما تحسرت « حنة » امرأة عمران على ولادتها للأنثى . جاء فى السياق قوله تعالى .

﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ (١) .

فى سورة آل عمران . وهذه الجملة تحتمل أمرين :

أولهما : أن تكون من تمام كلامها ، حين قالت :

﴿رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى﴾ .

أى إن الذكر وحده هو الذى يصلح أن يكون منذوراً لخدمة البيت .

ثانيهما : أن تكون من كلام الله عز وجل . فهو يقول لها : ليس الذكر الذى كنت تريدينه مثل هذه الأنثى ، بل إن هذه الأنثى شأناً عظيما أعظم من شأن الذكور . ونرى أن هذا المعنى الأخير أنسب بالسياق .

يقول الله عز وجل لها : أنت تريدين ذكراً بمفهومك فى الوفاء بالنذر . وليكون فى خدمة البيت . وأنا وهبت الأنثى . لكنى سأعطى بها آية أكبر من خدمة البيت ، سأخدم بها العقائد . لن أخدم بها رقعة تقام فيها الشعائر ، بل سأخدم بها العقائد حتى تقوم الساعة . لأنى سأعطى فيها آية ليست موجودة فى غيرها . آية طلاقة القدرة الإلهية .

* * *

قمة الإيمان والخلق بلا سبب :

نعلم جميعاً أن القدرة تخلق بأسباب . ولكن من أين تأتى الأسباب ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلقها طبعاً . فالذى يخلق شيئاً من سبب لابد أن يقدر على خلق نفس الشيء مجرداً عن السبب .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٦ .

الأسباب خاصة بنا نحن عالم الخلق . نحن الذين نعيش الأسباب والمسببات . لكننا حين نسأل : من أين جاء السبب ؟ تكون الإجابة : السبب من الله سبحانه وتعالى . فنقول : ما دام هو خالقه فلماذا لا يخلق المسبب من أول وهله ؟ ولذلك أعطانا طلاقة القدرة دليلا على أنه يقدر على ذلك . لأن هناك قمماً إيمانية يجب أن تظل على بالنا ، وفى بؤرة شعورنا دائماً .

خلق الله بالأسباب ناساً مثلنا ، من أب وأم . وجمهرة الخلق هكذا . وخلق من لا أب ولا أم ، وهو آدم عليه السلام .

هناك قسمة عقليـــة منطقية . ما دام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيأتى منهما تكاثــر .

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ (١) .

فالزوجان يجتمعان ، وهذه هى الصورة الكاملة ، أو ينعدمان . أو الأول معدوم والثانى موجود ، أو الثانى معدوم والأول موجود .

وجمهرتنا من اجتماع الزوجين ، وآدم من عدمهما . وطلاقة القدرة تقتضى أنه سبحانه كما يخلق المسبب من السبب ، يخلق المسبب من أول وهلة ، وانتهت المسألة . وقد أخرج من المسبب المخلوق ابتداء وهو آدم أسباباً والأسباب تجتمع فى جمهرة الناس ، وقـــد يكون ذكر ولا أنثى مثل خلق حواء . وقد تكون أنثى ولا ذكر كما فى خلق المسيح .

* * *

---

(١) سورة الذاريات آية : ٤٩ .

أنوار هداية فى ميلاد مريم

حصانة ضد الشيطان :

حين اختلفت ظنون « حنة » امرأة عمران فى أن يكون مولودها ذكراً فى خدمة البيت فولدت أنثى تمنت أن تكون هذه الأنثى طائعة ، فسمتها « مريم » لأن كلمة « مريم » عندهم معناها : العابدة : فما فاتها فى أن تكون فى خدمة البيت حصلته فى أن تكون فى خدمة عقائدها ومنهجها .

وقد عرفت أمها بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من الشيطان ، وأن الذى يقدح فى العبودية هو الشيطان . . وبمقتضى العقلية الإيمانية الحاضرة التى تمتعت بها امرأة عمران أم مريم ، والتى تستحضر المنهج كله فى ساعتها ، والتى تخشى على ابنتها مريم ، قالت :

﴿ وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ (١)

وذلك من أجل أن يكون الاسم الذى اختارته لها وهو « مريم » ومعناه : العابدة على مسمى حقيقى .

هناك مستعاذ هو الله ، ومستعاذ منه هو الشيطان ، والشيطان يدخل مع خالق الله فى عراك ، ولكنه لا يستطيع أن يدخل مع الله فى عراك أبداً ، ولذلك جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن الشيطان يخنس إذا ذكر الله . لأنه خناس جبان ، لا يقوى على مواجهة اسم الله .

إذن فمتى ينفرد الشيطان بالإنسان ؟ ينفرد به إذا كان بعيداً عن الله سبحانه وتعالى ولذلك قال تعالى :

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ (٢)

أرعبه بهذه الكلمة ، وحين تواجهه بهذه الكلمة ، ويعرف أنك مواظب عليها ، يعلم أنك تعلمت ما يحرقه ، فيبتعد عنك .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٦ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٢٠٠ .

وقد أرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تحصين ذرياتنا من الشيطان الرجيم ، فالإنسان إذا ما جاء أهله ، ومجيء الأهل مظنة حصول الولد ، فيقول الإنسان عند لقائه أهله : « اللهم جنبني الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتني » .

فمن قال هذا ، وجاء من هذا اللقاء مولود ، فإن الشيطان لا يكون له سبيل إلى هذا المولود أبداً .

ونحن نلاحظ أن امرأة عمران قالت في تعويذها لابنتها مريم :

﴿ وإني أعيذها بك وذريتها ﴾ .

ولم يكن لها ذرية سوى المسيح عليه السلام ، ولكن الذرية كلمة تطلق على الواحد والاثنين والثلاثة ، وعليه فالسياق صحيح .

* * *

تربية فوقية :

الله سبحانه وتعالى هو الذي تقبل مريم ، وهو الذي أنبتها نباتاً حسناً ، وهو الذي كفلها زكريا ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا ﴾ (١) .

وهذا دليل على أن أمر مريم من فوق .

وساعة نجد الناس يقترعون على شيء ما ، فالناس قد خرجوا عن مراداتهم في هذا الشيء إلى مراد الله سبحانه وتعالى . هناك شيء نختلف عليه ، فنقترع عليه ، لأمنع هواي وهواك ، وأخرج إلى مراد الله . وهذا هو ما حصل عند كفالة زكريا لمريم . وفي هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (٢) .

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٤٤ .

أى إن هذه المسألة كان لها ضجة ، ووقعت فيها خصومة ، وهم لا يلجأون إلى القرعة إلا إذا اختلفوا . وكل واحد يريد كفالتها لنفسه .

ومن فضل الله أن زكريا كان متزوجاً من « إيشاع » أخت « حنة » أم مريم العذراء ، فهو زوج خالتها . . ولما خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله بالقرعة أخذها زكريا دون غضاضة من أحـــد .

والاقتراع قاعدة عامة ماضية حتى عند الأنبياء ، فسيدنا يونس عليه السلام حين كان فى السفينة ، وخاف الناس أن تغرق لثقل حملها ، كان لابد أن ينزل واحد من ركابها ، فاقترعوا ، فجاءت القرعة على سيدنا يونس ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ (١) .

جاء سهم سيدنا يونس ليخرج إلى السعة العليا ، ولو لم تكن القرعة لقامت معركة فى السفينة .

* * *

أنى لك هذا ؟

لما كان زكريا كافلا لمريم ، فكأنه تولى كل مهمتها ، وهو الذى يرعى كل شئونها ، ولكن القرآن الكريم يسجل حقيقة فوق الأسباب فى قوله تعالى :

﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ﴾ (٢) .

لم يلاحظ زكريا هذه الحقيقة مرة واحدة ، ولكن فى كل مرة يدخل عليها يلاحظها ، فحين كان يجد عندها هذا الرزق ، والرزق أول المطلوبات من الكفيل ، وهذا الرزق الذى كان يجده هو غير الرزق الذى كان يأتيها به ، فى هذه الحالة لا بد أن يسأل . وقد سأل فقال :

﴿ يا مريم أنى لك هذا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الصافات ، آية : ١٤١ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

وهذا دليل على أن زكريا كان يغلق الأبواب على مريم ، فلو كانت الأبواب مفتوحة لما سأل ، لأنه يحتمل أن أى أحد وضعه عندها .

اذكروا ما قلناه مراراً ، من أن أى واحد متوكل بجماعة ، ثم يرى عندهم أى شىء أزيد مما يأتى به ، أو أزيد من طاقته ، أو أزيد من دخله ، لابد أن يسألهم : من أين جاء هذا ، كما سأل زكريا مريم العذراء .

وإلا ففساد البيوت كلها من هذا التغافل ، من هذه « التطنيشة » . يرى الرجل ابنته تلبس ما لايفى به دخله ، والوالد ينفق ما لايسعه دخله ، والزوجة تعد فى البيت من الطعام مالايستطيع الوفاء به ، فلايسأل ، فيكون الفساد دون شك .

فلو أن كل إنسان سأل أهل بيته عند زوائد نفقاتهم من أين هى ، لأوقفنا الفساد ، وصلحت البيوت .

وأجابت مريم زكريا بقولها كما جاء فى القرآن :

﴿ هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (١) .

حين قالت : **﴿ هو من عند الله ﴾** لم تدع للبديهة الإيمانية إلا أن تتحرك عند زكريا ، فقالت : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) . إنه يرزق ويفعل بكلمة « كن » وليس رزقه خاضعاً للأسباب .

* * *

الدعاء المجاب :

تحركت بديهة زكريا الإيمانية فقال : مادامت للقدرة طلاقة فى أن تفعل بلاأسباب فأنا أريد ولداً وإن كنت كبيراً وامرأتى عاقراً .

هل أوجد كلام مريم هذه البديهية الإيمانية عند زكريا ، أم إن كلامها نبهها فقط ، وهى فى الأصل موجودة عنده ؟ بل نبهها ، وهى موجودة قبل ذلك .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٧ .

هناك فرق بين معلوم فى بؤرة الشعور ، ومعلوم فى حاشية الشعور ، يستدعى عند اللزوم بتداعى المعانى .

فمريم استدعت هذه القضية من حاشية شعور زكريا إلى بؤرة شعوره ، فطلب من الله مطلباً من نفس النوع . . فقال :

﴿ رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ (١) .

وهذا دليل على أنه صدق مريم فى قولها : **﴿ هو من عند الله ﴾ .** ودليل آخر على صدقها : أنه لا بد لم ير الرزق الذى رآه عندها لا فى بيته ، ولا فى زمانه .

والولد يطلبه الناس عامة ليكون لهم عزاً ، أو ليحفظ ذكرهم ، ولكن زكريا طلب ذرية طيبة ، لأن هناك ذرية غير طيبة . وفى آية أخرى يقول :

﴿ يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾ (٢) .

أى أريده وعاء لإرث النبوة والمناهج ، وإرث القيم . . وطلب الهبة من الله معناه : استعطاء شىء بلا مقابل . وقد قال زكريا لربه : **﴿ هب لى ﴾** لأنه كبير ، ولأن امرأته عاقر . فهو طلب بلا مقابل من شباب من الرجل ، أو خصوبة فى المرأة . . بل إن من كان عنده استعداد فسيظل هبة بالنسبة له .

إياكم أن تفتنوا بالأسباب ، فهو هبة على أى حال ، يدل على ذلك قوله : **(من لدنك)** فهى تدل على أن عطاء الله لزكريا هو من وراء الأسباب . فهب لى من لدنك ، يعنى : من وراء أسبابك ، وإلا فالكل من عنده .

وهناك فرق بين عطاء بسبب ، وعطاء للأسباب ، كطالب العلم ينقطع لطلب العلم فيتعلم ، وآخر يفيض الله عليه العلم بلا تعلم ، وهو الذى يقال له العلم اللدنى ، أى من غير علاج .

فحين نسمع **(من لدنك)** فقد انعزلت الأسباب . وكلمة **(هب)**

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٨ .

(٢) سورة مريم ، آية : ٦ .

أعطتنى ما فى سورة مريم من أن امرأتى عاقر ، وقد بلغت من الكبر عتياً ، وكلمة **(هب)** هى التى تعطى هذه المعانى .

وحين قال زكريا فى نهاية دعائه : **(إنك سميع الدعاء)** . وحين يقول الناس ذلك فى دعائهم ، فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ، أم أن يجيب الدعاء ؟ المراد أن يجيب الدعاء . . فيارب لأنك تعلم صدق نيتى فى أنى لا أريد الولد للذكر ، ولا لقرة العين ، ولا للعز ، وإنما أريده وارثاً فى حمل منهجك فى الأرض ، فاسمع دعائى وأجبه ياربى .

وفى هذه الحالة من حالات الإخلاص والصفاء أجابه الله ، فقال تعالى :

***(فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى)*(١)**

وإذا كان الذى ناداه هو جبريل وحده ، فلماذا قال الله تعالى : **(فنادته الملائكة)** لماذا عبر عن النداء بمعنى الجماعة ولفظها ؟

والجواب أن الصوت من الحدث له جهة يأتى منها ، والصوت من الملأ الأعلى لا تعرف من أين يأتى . فكأن هنا ملكاً ، وهناك ملكاً ، وهناك ملكاً ، والكل ينادون . .

والآن قد ارتقى العلم فى الصوتيات ، حتى جعلوا المؤثر الصوتى الواحد يأتى من جهات مختلفة . . إذن فنداء الملائكة معناه أن النداء الواحد جاءه من كل جهة .

ولم يكن نداء الملائكة له بالإجابة إلا فى أورع أوقاته مع ربه ، وهو قائم يصلى فى المحراب . . أو يكون المعنى : أنه كان على قدم الأنبياء ، إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ، فنودى فى هذه الحالة .

جربوا . . إن تأزم عندك أمر فقم وتوضأ وضوءاً جديداً ، وإن كنت متوضئاً من قبل ، وقف أمام ربك وقل : يارب أمر عز على فى أسبابك ، ولم يبق لى غيرك . . وأنا أتحدى أن تسلم من صلاتك ولا يكون الفرج قد جاء .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٩ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .. وحزبه أمر ، أى : عزت عليه أسبابه ، وما دامت الأسباب قد عزت فاذهب إلى المسبب ، واختصر الطريق ، بدلا أن تتعب نفسك . . اذهب إلى ربك مباشرة ، فهو خالق السبب والمسبب جميعاً . . وفى المثل العامى : من له أب لا يحمل الهم . فما بالك بمن له رب .

وزكريا عزت لديه الأسباب ، فذهب إلى ربه ، ودعا فى المحراب ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى ، لم تنتظر حتى يفرغ من صلاته ، وهكذا كل من يلجأ إلى الله بقلبه وهمته جميعاً .

* * *

أدب النبوة وطلاقة القدرة :

لقد بشر الله زكريا بولد وهو قائم يصلى فى المحراب فقالت له الملائكة :

﴿ أن الله يبشرك بيحيى ﴾ .

والبشارة خبر بخير ، زمنه لم يأت بعد . فإذا كانت بخير لم يأت زمنه فلننظر من المخبر بالبشارة ؟ أهو الذى يقدر على الإيجاد ؟ أم هو من لا يقدر على الإيجاد ؟ فإذا كان المبشر هو القادر على الإيجاد فإن البشارة حاصلة لا محالة ، كما هو الحال هنا . حيث قالت له الملائكة :

﴿ أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيدا وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ (١) .

قال الله له : سأعطيك ولداً ، وسماه ، وحدد مهمته ، وأنه سيكون مصدقاً لكلمة من الله ، أى إنه سيعيش على المنهج ، أو هو سيأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأنه أول من آمن بالمسيح . وحدد صفاته ، وأنه سيكون سيداً ، وأنه سيكون حصوراً ، أى ممنوعاً من كل ما حرم الله ، أو ممنوعاً من قمة الغرائز وهى الشهوة ، وسيكون نبيا ، وأسوة لغيره فى إتباع منهج الرسول الذى فى عصره .

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٩ .

كان طالباً من الله ، وتلقى البشرى وهو قائم يصلى فى المحراب ، ولكنه تعجب ، فهو الطالب وهو المتعجب ، وقال :

***(رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر)* (١) .**

هذا دليل على أن النفس البشرية تتقلب ، فهى دائماً فى دائرة التلوين ، وليست فى دائرة التمكين . وذلك ليعطى الناس أسوة فى أنهم إذا حصلت لهم فى أمر من الأمور أن ينتبهوا إلى طلاقة القدرة .

قال يحيي : كيف يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر . فأتى بالعنصرين لأن بلوغ الكبر وحده ليس دليلا على عدم الإنجاب ، فإن هناك من يخصبون وهم فى المائة من عمرهم ، إنما المهم هو المرأة ، والمرأة هنا عاقر .

وهنا لفتة راقية من أخلاق النبوة ، وهى أنه ذكر نفسه بالعيب أولا ، وإلا فلو ذكرها بالعقم أولا لكان فى ذلك جرح لها ، فكأنه حينئذ يقول : أنا صالح للإخصاب وإنما العيب فى امرأتى . وهذا من أدب النبوة العالى .

وهذه العناصر إنما جاءت لتجسيد طلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، فحين جمع كل الموانع من هنا وهناك فإن الله يقول :

***(كذلك الله يفعل ما يشاء)* (٢) .**

وفى موضع آخر يقول :

***(كذلك قال ربك هو على هين)* (٣) .**

وما دام قد قال فقد فعل . . وهنا تظهر طلاقة القدرة ، لأنها فوق الأسباب ، والقدرة خالقة الأسباب .

* * *

(١ ، ٢) سورة آل عمران ، آية : ٤٠ .

(٣) سورة مريم ، آية ٩ .

شكر الأنبياء :

حينما بشر الله زكريا بالولد، وسماه، وأخبره بصفاته كلها ، تحركت فى داخله طبيعة الشكر لله على هذه النعمة منذ أول لحظة لحدوثها . . لم يرد أن ينتظر حتى تظهر العلامات المرئية أو المحسوسة للحمل فى امرأته ، من انقطاع الطمث ، أو تحرك الجنين ، أو كبر البطن ليشكر ، لأن الجنين قد تم خلقه قبل ظهور هذه العلامات ، وإنما أراد أن يشكر ربه فى اللحظة التى يحدث فيها الإخصاب على الفور . والعلم بذلك لا يكون إلا لله ، ولهذا قال زكريا :

***(رب اجعل لى آية)* (١) .**

أى علامة على أن هذا الأمر قد تم ، على أن المولود قد وجد فى الرحم بالفعل ، إنه يريد ألا يضيع لحظة واحدة فى غير شكر لربه ، لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه ، فهو يريد أن يعرف بمجرد حصول الإخصاب . يقول : يارب لا تتركنى للعلامات الظاهرة المحسة ، لأنى أريد أن أعيش من أول نعمتك على به فى إطار شكرك .

أريد أن أعيش فى نطاق الشكر من أول الإخصاب ، وإلا فقد وجدت النعمة عندى ، وأنا غير شاكر لها . . فهو ليس عنده شك فى وعد ربه ، وإنما هو يريد أن يسرع إلى الشكر . وهنا قال له الله تعالى :

***(آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار)* (٢) .**

المعنى المراد : أن تنهى عن الكلام لا أن تمتنع عنه أنت بإرادتك . . المراد أن تريد الكلام فلا تقدر .

هناك فرق بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام . وما دامت الآية موهوبة له من الله تعالى كالهبة الأولى فهى منع من الكلام . فساعة تجد نفسك عاجزاً عن الكلام مع الناس فى شئونهم فاعلم أن الحمل قد بدأ بالفعل .

(١–٢) سورة آل عمران ، آية : ٤١ .

لن تستطيع أن تكلم الناس إلا رمزاً بالإشارة .

ثم انظر لتعلم أن الآية من الله تعالى ، وأنه تعالى علم من زكريا الصدق فى طلب الشكر ، تراه قال له :

﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار ﴾ .

فإذا كان الذكر والتسبيح باللسان وبالكلام ، فإن زكريا سيصبح قادراً على الذكر والتسبيح ، أما إذا أراد الكلام مع الناس فى شئونهم فلا يقدر إلا على الإشارة والرمز فقط .

إذن هو أراد أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكراً ، فجعل كل وقته ذكراً ، ولم يشغله بكلام الناس ، فجعله قادراً على الذكر ، وغير قادر على كلام الناس .

* * *

مريم بين الإرهاصات

تجربة فى شخص مريم :

حينما سأل زكريا ربه أن يرزقه من يرثه كان ذلك نتيجة لما سمعه من مريم التى كفلها ومعنى كفلها : تعهد لها بالقيام بكل مقومات حياتها ، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ، وسؤاله إياها عن هذا الرزق دليل على أنه لم يكن مما يجيئها به ، فتعجب من أن يكون ذلك موجوداً . وهو الذى يأتى بكل شىء يحتاج إليه . . وردت مريم فقالت :

(إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

لفتة من مريم العذراء العابدة فى بيت الله لزكريا ، وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة له دلالة على أن الله يمهد لها بالرزق ويجىء لها من غير زكريا بأنها ستأتى بشىء من غير أسباب .

فكأن التجربة أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستتعرض لشىء يتعلق بعرض المرأة وشرفها ، فلابد أن تعلم مسبقاً أن الله يرزق من يشاء بغير حساب وبدون أسباب ، فإن جاءت بولد بدون ذكر من أبوة ، فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

* * *

وتجربة فى شخص زكريا الكفيل :

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : ما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ويأتى بالأشياء بلا أسباب ، فإنى قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا يهبنى الله غلاماً بلا أسباب ؟

إذن فقول مريم : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) لفت زكريا ونبه فيه إيماناً موجوداً فيه . . لا نقول : أوجد إيماناً بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب عند زكريا ، بل نقول : نبهه ، وأخرج القضية الإيمانية إلى بؤرة الشعور فقال : ما دام الأمر كذلك فأنا أسأل الله أن يهبنى غلاماً .

وطلب الهبة يدل على أنه كسبب الأبوة ، والمرأة كسبب الأمومة لا يأتيان بشيء . من هذا .

فلما سأل الله ذلك استجاب له وقال له : سأهبك غلاماً بدون أسباب من خصوبتك فى التلقيح ، ومن تلقى امرأتك .

* * *

وتجربة فى « يحيي » المنتظر :

وما دامت المسألة ستكون بدون أسباب ، وأن الإيجاد سيكون بكن ، فأنا أتحمل شيئاً آخر تتحملون أنتم معشر الآباء ، فأسميه لك أيضاً . . قال له : سأهب لك الولد ، وأهب لك الاسم .

وهنا وقفة عند الهبة بالاسم . . فالناس عادة يسمون أبناءهم عندما يولدون ، إذن فالتسمية أمر فى عادات الناس ، ولكن من يهمهم أمر الوليد حين يقبلون على تسميته يحاولون أن يتفاءلوا بأن يسموه أسماء يرجون أن يتحقق فيه المسمى . . فيسمونه سعيداً ، ويسمونه فضلا ، ويسمونه كريماً ، ويسمون بالاسم الذى يحبون أن يكون عليه المولود .

ولكن هل تأتى المسألة على وفق الآمال ؟ قد يسمونه سعيداً ولا يكون سعيداً ، وقد يسمونه فضلا ولا يكون فضلا ، وقد يسمونه كريما ولا يكون كريماً ، ويسمونه عزاً ولا يكون عزاً . ولكن الله سبحانه وتعالى حين يسمى هو ، ويقدر هو ، فإذا قال : اسمه يحيي دل على أنه سيعيش .

وقديماً قال الشاعر حين تفاءل بأن سمى ابنه يحيي :

فسميته يحيي ليحيي فلم يكن ‍ ‍ ‍ ‍ لرد قضاء الله فيه سبيل

سماه يحيي فمات ، لأن المسمى ليس هو الذى يحيي ، إن من سمى كانت قدرته عاجزة ، لكن المحيي له طلاقة القدرة . فحين يسمى من له طلاقة القدرة باسم « يحيي » فهل يحيي أو لا يحيي ؟ نعم يحيي .

وحتى لا نفهم أن الحياة التى أشار الله إليها فى « يحيي » هى الحياة الظاهرة المعروفة للبشر عادة . . لأنه حينما يسمى الرجل ابنه يحيي ، فإنه يأمل أن يحيا متوسط الأعمار ستين أو سبعين أو ثمانين عاماً مثلا .

لكن الله سبحانه وتعالى حين يسمى ، لا يأخذ يحيى على قدر ما يفهم الناس ، بل يأخذها على أنه لا يموت أبداً .

كيف لا يموت أبداً ، والكل يموت بقضاء الله المكتوب؟ والجواب أن الله يهيىء له من خصومه وأعدائه من يقتله ، فيصير شهيداً ، وهو بالشهادة يصير حياً ، فكأنه يحيا دائماً .

انظروا إلى لمحة التسمية . . الله يسميه من عنده ، وحين يسمى من يقدر ، فإن الإسم يشيع ، ولابد أن يكون معنى الاسم مناسباً لطلاقة القدرة ، وما دام شهيداً فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، إذن فهو يحيا حياة الناس ، ويحيا حياة أطول من حياتهم إلى أن تقوم الساعة .

* * *

وعجب زكريا :

وأيضاً نأخذ ملحظاً من أن زكريا حينما بشر بغلام ، وسماه الله يحيى ، نجده استقبل البشارة بالعجب ، وكيف يستقبل البشارة بالعجب مع أنه رآها فى مريم حين رزقها الله من غير حساب ، وبدون أسباب .

أكنت تحب أن يمر زكريا بهذا الأمر الخارق للناس مروراً عادياً ، دون أن يندهش ويتعجب ؟

بل تعجب وقال : **﴿أنى يكون لى غلام﴾ (١) .**

فكأن الدهشة لم تكن لأنه سيكون له غلام ، ولكنها لفتة إلى الأمر العجيب الذى خصه الله به .

وأيضاً ما دامت المسألة ، جاءت على خلاف الناموس ، ناموس النسل ، امرأة عاقر ، ورجل بلغ من الكبر عتياً ، ولم يقل الله له إنى سأهبك الغلام من امرأتك هذه ، أو منك على هذه الحالة . .

هنا تحير زكريا ، هل سيهبنى الله الغلام وأنا وامرأتى على هذه الحالة ، أو يردنا شباباً ، أو من امرأة أخرى ؟

إذن فالعجب من الهيئة التى سيكون عليها الإنجاب ، وليس من خرق الله للسبب فى ذاته .

(١) سورة آل عمران آية : ٤٠ .

واصطفى الله مريم على النساء

وفى سورة آل عمران يعلن الحق اصطفاءه لمريم على نساء العالمين من بين آل عمران الذين اصطفاهم على عالمى زمانهم أيضاً فقال تعالى :

(وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) *(١)

وكما قلنا : المراد بالملائكة جبريل . وكما قلنا كذلك إن المتكلم من البشر له زاوية انطلاق يأتى من جهتها الصوت ، ويستطيع السامع من البشر أن يتأكد من ذلك ، حين يجد أنه دائماً يميل بأذنه نحو مصدر الصوت .

لكن المتكلم هنا من الملأ الأعلى ، ولهذا جاء الصوت من كل مكان ، فلا يمكن تحديد جهة ، وهذا ليكون عجيباً .

وعناصر الكلام الذى نادت به الملائكة مريم هى : اصطفاك . . وطهرك . . واصطفاك على نساء العالمين . .

هنا اصطفاءان : اصطفى الأولى لم يقل فيها إنه اصطفاها على أحد . . والثانية قال فيها : إنه اصطفاها على نساء العالمين .

وإذا قال الحق اصطفيت فلاناً ولم يقل إنه اصطفاه على أحد ، فلا مانع حينئذ من أن يصطفى معه غيره . اصطفاه واصطفى غيره كذلك فى أى زمان ومكان ، « بدليل أنه تعالى قال فى كتابه :

***(إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) *(٢)**

أما إذا قال : إنه اصطفى فلاناً على فلان ، فإن هذا الاصطفاء لا يشاركه فيه أحد أبداً . .

وهنا اصطفى الله مريم ضمن اصطفاء آل عمران ، وهو الذى كان على عالمى زمانهم ، واصطفاها وحدها على نساء العالمين ، وهو الذى

---

(١) سورة آل عمران ، آيتا : ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٣ .

كان على نساء العالمين فى أى زمان ومكان ، وذلك للمهمة التى لم تقم بها امرأة غيرها فى العالم كله .

ما هو الاصطفاء ؟

الإصطفاء : اختيار واجتباء . مأخوذ من الصفو ، والصفو : الشيء الخالى من الكدر . والمعانى تعرف بالمحسات ، نعرف الصفو من رؤيتنا للماء الكدر ، ومن العسل المصفى ، وهو الذى لا كدر فيه . . وفى القيم والمعانى نقلنا المحسات إلى المعانى .

اصطفاك : اختارك واجتباك . . بماذا ؟ بالإيمان ، وبالصلاح ، وبالخلق الطيب . . ولم يقل على من .

لكن فى الثانية قال : **(على نساء العالمين)** . . إذن الرجال خرجوا .. لأن الموضوع ليس موضوع رجال . إنما اصطفاها على نساء العالمين . . يعنى : لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها فيما اصطفيت له ، لأنها الوحيدة فى العالمين التى ستلد بدون ذكر من أبوة ، وهذه لم تشاركها فيها أنثى .

* * *

إيناس وتمهيد :

واصطفاء مريم على نساء العالمين يجب أن ينبه فى الإنسان البحث عن سر هذا الاصطفاء ، ما الذى تمتاز به مريم على نساء العالمين حتى يصطفيها الله عليهن ؟ إنه شيء يشغل الذهن حقاً ، وينشغل على شيء من وظيفة الأنثى .

ضم هذه إلى قول الله على لسانها :

(إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

ثم ضم الإثنين إلى نداء زكريا ، وإجابة الله عز وجل له بهبة ابنه يحيى ، وما فى ذلك كله من الأسرار ، تجد كل هذا إيناساً بالحدث الذى سيحدث بعد ذلك ، لأنه شيء يتعلق بعرضها وعفافها ، فلابد أن يمهد الله له تمهيداً يؤكد أن هذه المسألة ليس فيها شيء يخدش العرض ، ولا يخدش الكرامة ، وإنما هو محض اصطفاء واختيار من الله تعالى .

نتائج الاصطفاء :

ما نتيجة هذا الاصطفاء إذن ؟

الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار . وهو يقتضى مصطفيا، ومصطفى ، ومصطفى عليه ، والمصطفى هو الله ، والمصطفى هو من وقع عليه الاصطفاء . فما هى علة هذا الاصطفاء ؟

هل يصطفى الله واحداً على الخلق ، أو يصطفى مكاناً على مكان ، أو زماناً على زمان ، ليدلل الإنسان والمكان والزمان ، أم ليقنن بالإنسان وفى المكان وفى الزمان ؟

إن الذى يصطفيه الله إنما يصطفيه لمهمة صعبة ، وليس لمجرد التدليل . فهو يصطفيه ليشيع اصطفاءه فى الناس ، فكأنه مصطفى للناس، ولمصلحة الناس ولذلك إذا اصطفى الله إنساناً أو أصطفى زماناً أو اصطفى مكاناً ، فاعلم أن اصطفاء الله للمكان مثلا ، إنما هو ليشيع اصطفاؤه فى كل مكان ، كما اصطفى الله الكعبة للعالمين كلهم ، وإذا اصطفى زماناً مثل رمضان ، فإنما هو ليشيع صفاؤه وصفاء ما أنزل فيه فى كل زمان .

إذن لمصلحة المصطفى عليه يكون اختيار المصطفى . لماذا ؟ لأنه ليس منا أحد ابناً لله . ولا مكان أقرب إلى الله من مكان ، ولا زمان أقرب إلى الله من زمان ، لكن الله يصطفى مكاناً على مكان ، وزماناً على زمان ، وإنساناً على إنسان ، ليشيع اصطفاء المصطفى فى كل ما اصطفى عليه .

إذن يجب أن يفرح الناس ولا يغارون ، لأن الاصطفاء لمصلحتهم ..

وربما سأل سائل : ولماذا اصطفى الله مريم ليشيع اصطفاؤها فى الناس ؟

والجواب أن هذا الاصطفاء معناه : أن يبرئه الله مما يقع فيه نظيره من الاختيارات ، ويجعله لا يفعل إلا الخير من أول وهلة . . أما نحن فسنتعلم من الرسول الذى سيجىء . . . المدة التى علمنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ثلاثاً وعشرين سنة ، ليربى الإنسان المؤمن . فهل كان هو أيضاً يجلس ليتعلم ثلاثا وعشرين سنة من أجل أن يعلمنا ما تعلمه ؟

لا . . إن الله يصطفيه ، ويبرئه مما يقع فيه غيره من الاختيارات .. ويجعله وعاء خير محض ، وهكذا كانت مريم .

* * *

مريم تعيش فى نعمة الشكر :

وكان من توجيه الله لمريم وهو يعدها لأعظم مهمة أن وجهها نحو الشكر الدائم بمختلف وسائله فقال تعالى :

﴿ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ (١) .

اقنتى : اعبدى بخضوع وخشوع ، اسجدى : بالغى فى الخضوع والخشوع بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض .

لكن ذلك لا يعفيك مما يكون من العبادة مع الناس . فلا تقولى إنى فعلت الأعلى فلا أفعل الأدنى . لا . . بل اركعى مع الراكعين .

شاركى الناس فى عبادتهم ، واركعى معهم ، ولو كنت قد سجدت وحدك . . كونى فى ركب الراكعين . أو كونى فى ركب الإيمان .

ونظير ذلك فى المعنى قوله تعالى على لسان المتحاورين :

﴿ ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين ﴾ (٢) .

هم كفار . . فكيف يعذبون لأنهم لم يكونوا يصلون ؟ ولكن المعنى : لم نكن فى سلك المصلين من المؤمنين . أى لم نكن من المؤمنين الذين يصلون .. إذا أن الصلاة هى سمة المؤمنين وحدهم .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٣ .

(٢) سورة المدثر ، آيتا : ٤٢ — ٤٣ .

ذلك من أنباء الغيب

ولكن ما هى وسيلة العلم بخبر مريم وقصتها ؟ إنه الغيب وحده ، ولهذا يقول الحق :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (١) .

وكلمة النبأ لا تأتى إلا فى الخبر العظيم . والغيب . من الغياب عن الحس . وهناك غياب عن الحس يمكن أن يدركه مثلك ، وهناك غياب عن الحس لا يمكن أن يدركه مثلك من الناس .

وقلنا مراراً : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب فى الزمن الماضى ، ومرة يكون فى الزمن المستقبل ، ومرة يكون فى المكان . . لأن الأحداث تكون فى زمان ومكان . فمرة يجىء الحجاب فى الزمان . فإذا أخبرنى منبىء بخبر مضى زمنه فقد خرق حجاب الزمن الماضى ، وإذا أخبرنى بخبر سيحصل بعد ، فقد خرق حجاب الزمن المستقبل .

ولكن إذا كان معاصراً لى ، فقد خرق حجاب المكان ، أنا الآن فى القاهرة ، لا أستطيع أن أعرف ما يجرى فى طنطا ، أو فى الإسكندرية . فإذا أخبرنى الآن منبىء بخبر يحدث الآن فى الإسكندرية فقد خرق حجاب المكان .

إذن فالحجاب قد يكون حجاب مكان ، وقد يكون حجاب زمان ماض ، وقد يكون حجاب زمان مستقبل .

فإذا كان الله تعالى ينبىء رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك النبأ ، فوسائل علمه صلى الله عليه وسلم ثلاثة :

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٤ .

إما أن يشهده ، وهذه تستدعى أن يكون فى زمنه ، وهذه أشياء حدثت منذ زمان ماض بعيد ، والمشاهدة لا تصلح وسيلة علم إذن .

وإما أن يقرأ ، وإما أن يسمع . وهذه وسائل العلم : المشاهدة ، القراءة ، السماع ، وهو صلى الله عليه وسلم بإقرار جميع خصومه لم يكن قارئاً . فامتنعت هذه الوسيلة أيضاً ، وبإقرار خصومه صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فيسمع منه ، فهو لم يسمع أيضاً . فامتنعت كل وسائل العلم ، فلم يبق إلا أنها وحى .

والله تعالى يقول له :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾

لم تكن معهم ولم تقرأ ولم تسمع ، فلم يبق إلا أن يخبرك من يخرق حجاب الزمن الماضى ، ويخرق حجاب الزمن المستقبل ، ويخرق حجاب المكان ، سبحانه وتعالى .

والوحى : إعلام بخفاء . لأن للإعلام وسائل أخرى هى القراءة والرؤية ، أما الإعلام بخفاء فهو الوحى .

والوحى يقتضى : موحيا ، وموحى به ، وموحى إليه . وإذا نظرت إلى الإعلام بخفاء تجد له وسائل كثيرة . فالله يوحى ، والموحى إليه يختلف . هو سبحانه وتعالى يوحى إلى الأرض ، قال تعالى :

﴿ يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها ﴾ (١) .

ويوحى إلى النحل . قال تعالى :

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ﴾ (٢)

ويوحى إلى الحواريين ، قال تعالى :

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ﴾ (٣) .

(١) سورة الزلزلة ، آية : ٤ ، ٥ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٦٨ .
(٣) سورة المائدة ، آية : ١١١ .

وأوحى إلى أم موسى ، قال تعالى :

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ﴾ (١) .

وكذلك أوحى إلى الملائكة ، وأوحى إلى الأنبياء .

وهناك غير الله يوحى ، فالشياطين يوحون :

﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ (٢) .

﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ (٣) .

لكن الوحى إذا اطلق انصرف إلى الوحى من الله إلى من اختاره لرسالته . وما عدا ذلك من الوحى فهو الوحى اللغوى .

وحى الله للأرض ليس اصطلاحيا ، وكذلك وحيه لأم موسى ، وللنحل وللأرض ، وغير ذلك كله ليس وحيا اصطلاحياً ، والوحى الاصطلاحى هو الذى يكون من الله إلى من اختاره للرسالة فقط .

* * *

(١) سورة القصص ، آية : ٧ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢١ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ١١٢ .

بشــارة مــريم

الكلمة والمسيح :

وبعد ذلك كله بشرت الملائكة مريم بالمسيح يولد بمقتضى الكلمة ، لا بمقتضى الذكر والأنثى ، فقال تعالى :

﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ﴾ (١) .

البشارة لابد أن تكون بخبر عظيم مفرح . وكانت البشارة بالكلمة ، لأن الله تعالى يزاول سلطانه فى الملك بالكلمة ، لا بالعلاج :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٢) .

وكلمة « كن » هى تقريب لنا فحسب ، لأنه لا يوجد عندنا أقصر فى الإفهام من « كن » إنما الحقيقة أن الأمر ينتهى قبل الكاف .

انظر إلى قوله تعالى : (إذا أراد شيئاً أن يقول له » فالقول له ، يعنى للشىء المراد ، إنه يقول للشىء المراد : كن . أى إنه موجود قبل أن يقول له كن وإلا لما خاطبه بكن ، إن الأشياء موجودة بالإرادة ، فما أراد الله إظهاره لخلقه قال له « كن » فكأنه يقول له : اظهره لخلق . أما الأشياء فهى موجودة بالإرادة ، و « كن » للإظهار فقط .

وقد أطلق الله تعالى على المسيح المبشر به ثلاثة أسماء : المسيح ، عيسى ، ابن مريم ، فالمسيح لقبه ومعناه : الممسوح من الذنوب ، أو لأن من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المبارك . وعيسى اسمه . وابن مريم كنيته .

والعلم فى اللغة يأتى على ثلاثة أنحاء : اسم ، وكنية ، ولقب ، قال ابن مالك :

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٥ .

(٢) سورة يس ، آية : ٨٢ .

« واسماً أتى وكنية ولقباً »

فالاسم ما يطلق على المسمى أولا . والاسم الثانى إن أشعر برفعة أوضعة فهو اللقب ، وإن كان مبدوءاً بأب أو أم فهو الكنية .

* * *

صفات دالة على المستقبل :

وصف القرآن المسيح عليه السلام بقوله تعالى :

***(وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين)* (١) .**

نقول : فلان وجيه ، ومن وجهاء القوم ، والوجيه هو الذى لا يرده مسئول للكرامة فى وجهه . تقول : هذا الوجه لا يرد ، وتستحى أن ترده . ولذلك يقول السائل : أعطنى لوجه الله . . لا تنظر لوجهى ، بل لوجه الله . لأن الله هو الذى خلقنى ، فهو الذى يتكفل برزقى . . فأنت حين تعينى فكأنك تعطى لوجه الله سبحانه وتعالى .

ولماذا كان وجيها فى الآخرة ؟

كان وجيهاً فى الآخرة لأنه سيسأل سؤالا يتعلق بالقمة الإيمانية ، فيقال له :

***(أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله)* (٢) .**

وليس هذا السؤال سؤال تقريع ، بل إن التقريع لمن قال هذا الكلام ، وادعى فيه هذه الدعوى ، ولذلك سيقول الله تعالى فيه :

***(وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا)* (٣) .**

---

(١) سورة آل عمران ، آيتا : ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ١١٦ .
(٣) سورة مريم ، آية : ١٥ .

يوم ولد ، لأنهم اتهموا أمه بالخنا ، وهى الطاهرة البتول ، ويوم يموت لأنهم قالوا فيه : إله ، أو ابن إله ، وإنه صلب ، إلى آخر ما قيل . . . وحين يفتن البشر فى واحد فللمغالى جزاءه .

وأتى بكلمة « المهد » و « كهلا » رمزاً إلى أن عيسى من الأغيار ، يطرأ عليه ما يطرأ على الناس من الطفولة والكهولة ، وما دام كذلك فيجب ألا تفتنوا فيه ، وتقولوا عنه : إله ، أو ابن إله .

* * *

دلالة كلام المسيح فى المهد وفى الكهولة :

والكلام معناه : اللفظ الذى ينقل فكر الناطق إلى السامع . وقول الحق :

(ويكلم الناس فى المهد)

معناه أن المسيح عليه السلام سيواجه الناس بكلامه ونفهم منه كذلك سر وجود آية أن يتكلم وهو فى المهد .

وذلك لأن المسألة تتعلق بعرض أمه ، وبعفتها وكرامتها ، فكان أن جاءت آية لتمحو عجباً من الناس حين يجدونها تلد بدون أب .

وهذه المسألة إذا بحثنا عنها فى الإنجيل لا نجد لها وجوداً ، آية الكلام فى المهد لا وجود لها فى الإنجيل ، مع أنها كان يجب أن تقال منهم ، لأنهم يمجدون نبيهم ، ولهذا كان يجب ألا يغفلوا عن هذه العجيبة .

إلا أنه لما كان كلام طفل فى المهد عجيباً ، فإن كلامه سيكون محفوظاً ومتداولا بين الناس ، لأنه حين يتكلم وهو فى المهد فإن الناس لن يقولوا : إنه تكلم فقط ، بل سيحفظون كلامه ويقولون : قال كذا وكذا ، لأن العجيب هو أنه يتكلم فى المهد ، فالناس لابد أن يعرفوا ماذا قال .

والكلمة التى قالها فى المهد لا تسعف أتباع المسيح عليه السلام فيما يدعونه له ، لأن الكلمة التى قالها هى :

***(إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) (١) .**

---

(١) سورة مريم ، آية : ٣٠ .

ولهذا أغفلوا هذه القصة نهائياً . . لأن كلام طفل فى المهد سيكون عجيباً ، ومادام عجيباً وملفتاً للأذهان فلا بلاأن يحفظه الناس ، وهو قال : إنى عبد الله ، وهذا القول ينقض القضية التى يريدون أن يضعوا فيها عيسى عليه السلام .

والكهل : هو من فى العقد الرابع من العمر ، أى من الثلاثين إلى الأربعين . وبعضهم قال : من فى الأربعين .

فإذا كان قد تكلم فى المهد ، فبقى أن يتكلم وهو كهل ، وهو قد حصلت له مسألة الصلب أو عدمه ، أو الاختفاء عن البشر ، قبل أن يكون كهلا إذن لابد أن يأتى وقت يكلم الناس فيه وهو كهل .

وأيضاً قوله : *(**ويكلم الناس فى المهد**)* أى طفلا ، *(**وكهلا**)* يعنى : ناضج التكوين إذن ففيه أغيار ، وفيه أحوال .

فإذا كنتم تقولون : إنه إله ، فالألوهية وهو فى المهد هى الألوهية وهو فى الكهولة ، ولكنها تكون ناقصة وهو فى المهد . إذن حصلت له أغيار ، ومادام قد حصلت له أغيار فهو محدث ، ومادام محدثاً فهو ليس إلهاً .

وقد جاء فى وصف المسيح عليه السلام قوله تعالى : *(**ومن الصالحين**)* . إذن فكيف يتفق وصفه بالصلاح مع ذكر ما هو أعظم من الصلاح ، وهو النبوة ، والكلام فى المهد ؟

نقول : إن المعجزات التى أكرمه الله تعالى بها لا اختيار له فيها ، فكلامه فى المهد من الله ، ودون اختيار منه ، وكلامه فى الكهولة بالوحى ، فلا اختيار له فيه ، أما كونه من الصالحين فهذا عمله هو ، وحركته السلوكية إذ لايكفى أن يكون مبلغاً ، أو حامل آية ، ولكنه لابد أن يؤديها .

لم يمسسني بشر

نريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قول مريم :

﴿ أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ﴾ (١) .

لأن هذا كما قلنا أمر يتعلق بعرضها وعفافها وسيكون له شأن فى اتهامها الذى جاء به القرآن فى قوله تعالى :

﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ (٢) .

ولو قالت: **(أنى يكون لى غلام)** وسكتت ، فهذا كلام معقول ، أما قولها : (ولم يمسسنى بشر) فمن أين أتت به ؟

الله تعالى لم يقل لها : إنك ستلدين من غير أب ، فكيف عرفت أنه سيكون بلا أب ؟ وسيكون من غير أن يمسها بشر ؟

انظروا إلى فطنة مريم التى أعدها الله لتتلقى عنه حين قال لها الله سبحانه وتعالى وهو يبشرها :

﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ (٣) .

لقد أدركت أنه ما دام قال : ابن مريم ، إذن فهو من غير أب فقالت : (ولم يمسسنى بشر) . استنتاجاً من قوله : (ابن مريم) . لأنه لايمكن أن ينتسب إلى الأم مع وجود الأب . هذه هى الفطنة ، وهذا هو التلقى ؟ حينئذ قال الله تعالى :

﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ (٤) .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٢٠ .
(٢) سورة مريم ، آيتا : ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٤٥ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ٤٧ .

كذلك ، أى : لن يمسك بشر ، كان يمكن أن يقال : إنه نسب إليك لأنك مكرمة ، وأنت كنت منذورة ، وأنت فى خدمة البيت ، ولكن قال لها : (كذلك) تأكيداً لما فهمته .

أى : هو كما تقولين ، لن يمسك بشر ، الله يخلق ما يشاء ، وهذه هى طلاقة القدرة .

وقلنا مراراً : إن طلاقة القدرة فى الأنسال أو فى الإنجاب أو فى عالم التكثير فى الإنسان لاتتوقف على وجود ذكورة وأنوثة . وإلا فلو كانت متوقفة على وجود الذكورة والأنوثة فكيف وجد آدم عليه السلام أول الخلق بلا ذكر ولا أنثى ؟

إذن هو يخلق بعدمهما ، وهو آدم ، ويخلق بواحد منهما ، وهو حواء وعيسى عليه السلام ، ويخلق بهما ، وهم جمهرة الناس .

ولاتظنوا أن اجتماع العنصرين منتج للنسل حتماً ، لا ، بل قال : أنا أمنع النسل مع وجودهما . قال تعالى :

﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ۞ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً﴾ (١) .

إذن لاتقل : إن اكتمال العنصرين ينتج وأن امتناعهما لاينتج . لا . فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب ، إنما الذى خلقكم وخلق الأسباب الأسباب لكم هو الذى يوجد بلا أسباب ، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأه بلا أسباب .

---

(١) سورة الشورى ، آيتا : ٤٩ ، ٥٠ .

عيسى رسول الله ﷺ

رسالة المسيح عليه السلام :

قال الله تعالى :

***(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل) (١) .**

حينما نسمع كلمة الكتاب نفهم منه : أنه الكتاب المنزل . فكيف هذا وقد قال تعالى : ***(والتوراة والإنجيل)*** ؟

إذن لابد من تفسير كلمة ***(الكتاب)*** . يجوز أن تكون الكتب المتقدمة ، مثل الزبور ، وصحف إبراهيم . أى علمناه ما نزل قبله من زبور داود وصحف إبراهيم . والمباشر الذى جاء ناسخا له وهو التوراة ، والإنجيل وهو كتابه .

وبعض العلماء قال : أثر عن عيسى عليه السلام : أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده . إذن***(ويعلمه الكتاب)*** أى : الكتابة .

أما الحكمة ، فكلمة الحكمة عادة تأتى بعد الكتاب المنزل . قال الله تعالى :

***(واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة)* (٢) .**

فآيات الله هى القرآن ، والحكمة هى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فالرسول له كلام يتلقاه ، ويأمره الله بإبلاغه ، وله كلام من عنده هو الحكمة .

---

(١) سورة آل عمران ، آيتا : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٣٤ .

أما التوراة فقد جاء المسيح ليكمل التوراة ، ليكمل ما أنقصه اليهود منها . إذن فالتوراة أصل من أصول التشريع ، لأن الله تعالى قال فيه :

﴿ورسولا إلى بنى إسرائيل﴾ (١) .

* * *

معجزات المسيح :

قال الله تعالى :

﴿ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (٢) .

كلمة رسول ، تتطلب علامة . . فليس لأحد أن يقول : إنى رسول من عند الله إلا إن قدم بين يديه معجزة تثبت أنه رسول من عند الله .

والآية ، هى الأمر العجيب الذى خرج عن القوانين والنواميس ، ومادامت المعجزة إنما جاءت لتثبت صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، فلابد أن تكون أمراً خارجاً عن النواميس المعروفة للبشر . ومادامت خارجة عن نواميس البشر ، فالمخالف نقول له : أنت حين تكذب أن هذا رسول ، فكيف أنه جاء بشىء خارج عن ناموسكم ؟

إذن الآية تلزم المنكر الحجة ، وتتحداه ، كأنه يقول له : أتحداك أن تجىء بآية مثلها .

ومن لوازم التحدى : ألا يتحدى الله الناس فيعطى لرسوله معجزة إلا بشىء قد نبغ فيه القوم وتغدقوا ، لأنه لوجاءهم بشىء لم يعرفوه ولم يدرسوه ولم ينبغوا فيه ، فإن الرد سيكون : هذا شىء لم نروض أنفسنا عليه ، ولو روضنا أنفسنا عليه لأتينا بمثله .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

ولكنه يقول : سآتيكم بمعجزة من جنس ما نبغتم فيه .

الناس فى زمن موسى عليه السلام كانوا نابغين فى السحر ، فجاءهم الله تعالى على يد موسى بشىء يشبه السحر وليس سحرا . . احذروا أن تقولوا عن معجزة موسى عليه السلام . . إنها كانت سحرا . . فالسحرة يخيلون للناس أشياء لاواقع لها فى حقيقة الأمر .

والقرآن الكريم يعطيك الفارق بين ما تكون عليه المعجزة التى يأتى بها الله على يد الرسول من الأمور الخارقة ، وبين ما يكون عليه سحر السحرة فى معجزة موسى عليه السلام ، فالله حين سأل موسى قال له :

﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ (١) .

فقال له موسى :

﴿ هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ﴾ (٢) .

قال له الله تعالى :

﴿ ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ (٣) .

قال له ربه : هذا علمك بما فى يمينك . . أن تتوكأ عليها ، وتهش بها على غنمك ، أما علمى فهو شىء آخر ، ولهذا لما ألقى موسى عصاه وجدها حية تسعى ، حية حقيقية .

﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ (٤) .

خوف موسى هو الذى أوجد الفرق بين المعجزة وبين سحر الناس . فالساحر حين كان يلقى عصاه كان الناس يرونها حية ، أما هو فيراها

---

(١) سورة طه ، آية : ١٧ .
(٢) سورة طه ، آية : ١٨ .
(٣) سورة طه ، آيتا : ١٩—٢٠ .
(٤) سورة طه ، آية : ٦٧ .

عصا أو حبلا على حقيقتها ، ومن هنا لم يكن الساحر يخاف من الحيات التى يخيل للناس أنه صنعها .

إذن لماذا خاف موسى ؟ خاف موسى لأن عصاه قد تغيرت وتحولت إلى حية بالفعل ، ولذلك قال له ربه سبحانه :

﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ (١) .

ولو كانت من جنس السحر لما خاف ، أو لما أوجس فى نفسه خيفه .

وقوم عيسى كانوا مشهورين بالطب والحكمة . وماداموا مشهورين بالحكمة والطب فإن المعجزة ستأتى من جنس الحكمة والطب ثم تتسامى ، لأن الذى يداوى جسمك تنقطع علاقته به إذا مات ، ساعة أن يموت المريض فقد خرج عن دائرة علاج الطبيب . . ولكن معجزة عيسى عليه السلام تسامت فجعلته يحيى الموتى ، وهذا فرق فى الإعجاز .

* * *

الخلق فى معجزة المسيح :

من معجزات المسيح أنه يخلق قال تعالى على لسانه :

﴿ إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ (٢) .

كلمة (أخلق) تريد وقفة . وكذلك (الطين) و (الهيئة) و (الطير) الخلق : إيجاد شيء على تقدير . أى : إيجاد شيء كان فى ذهنك أن تأتى به على هذه الحالة قبل أن توجده .

أما إن كنت ستوجده كيفما اتفق ، وعلى أى حال جاء ، فليس هذا خلقاً . فالخلق لابد أن يكون مقدراً قبل الإيجاد بالطول والعرض والعمق

---

(١) سورة طه ، آية : ٢١ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٤٩ .

والهيئة . فصانع « الطعمية » مثلا قد يصنعها على قالب ، فهذا تقدير . وقد يصنعها كيفما اتفق . فهذا ليس خلقاً لأنه بلاتقدير .

والخلق على تقدير فيه إيجاد من عدم . فالكوب الزجاجي مثلا حينما حصلنا عليه ، هل كانت هناك شجرة تثمر أكواباً ؟ أم إننا أخذنا الرمال وصهرناها ، وصنعنا منها أكوابا ، لم تكن موجودة فوجدت على تقدير .

هذا خلق ، والله تعالى يخلق ويوجد على تقدير ، فما الفرق إذن بين خلق الله ، وخلق البشر ؟

أولا : إن صنعة البشر حين يخلق ، فإنما يخلق من موجود ، أما الله تعالى فحين يخلق فإنما يخلق من عدم .

فالبشر يأخذون الموجود ، ويتصرفون فيه بالعلم ، حتى يكون شيئاً جديداً بتقدير . والبشر لايستطيعون خلق كوب زجاجي بدون رمل . إذن فخلق البشر من موجود ، وخلق الله من عدم ، وهما إيجاد على تقدير .

ثانيا : الله تعالى حين يخلق يعطى خلقه سراً لايستطيع البشر إعطاءه لما يخلقون ، يعطيه سر الحياة التى بها النمو والتكاثر .

فالبشر يستطيع صنع الكوب الزجاجي ، ولكنه لايستطيع أن يصنع كوباً ذكراً وكوباً أنثى ، ويزوجهما لينسلا ويتكاثرا . . بل يوجد البشر الكوب كما هو . لا يوجده صغيراً ثم يكبر .

أما صنعة الله فيعطيها الحياة ، فهو تكبر ، وتتطور فى مراحل ، تؤتى مثلها .

والخلاصة : أن الخلق إيجاد على تقدير ، وهذا الخلق يوجد معدوماً ، وهذا المعدوم مادته موجودة أم غير موجودة ؟ الله تعالى يأتى بالشيء من العدم ، لامادة له فى الأصل ، والبشر يأتى بالشيء ومادته موجودة .

وأيضاً البشر حين يوجدون شيئاً يوجدونه جامداً لاحياة فيه ، ولا قدرة له على الإتيان بمثله ، أما الله سبحانه وتعالى فيأتى بالشيء حياً قادراً على إيجاد مثله .

إذن فقول الحق سبحانه :

***(فتبارك الله أحسن الخالقين)* (١) .**

يدل على أن الله سبحانه وتعالى لم يضن على خلقه بأن يخلقوا أشياء ، أنتم تخلقون ، والله يخلق ، ولكن الله أحسن خلقا ، لأنكم تخلقون من موجود ، وخلقكم لا يؤتى مثله ، أما الله تعالى فيخلق من عدم ، وخلقه يوجد المثل . فهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن قول عيسى عليه السلام : *(أخلق لكم من الطين كهيئة الطير)* عمل فى مقدور أى إنسان . يمكن لأى إنسان أن يأتى بقطعة من الطين ، ويشكلها على هيئة طير .

لكنه قال : *(فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله)* . وهنا المعجزة .

(فأنفخ فيه) فى الطين ، أو الهيئة ، أو فى الطير . . إن قلت فى الطين فهو بعد ما صار طيراً . . ويصح *(فأنفخ فيها)* أى فى الهيئة . هناك آية هكذا . . *(فيه)* فى الطين أوفى الطير ، و *(فيها)* للهيئة .

وعن مريم أيضاً جاء الوجهان :

***(والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا)* (٢) .**

***(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا)* (٣)**

(فيه) أى : فى الفرج . و (فيها) أى : فى درعها .

---

(١) **سورة المؤمنون** ، آية : ١٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٩١ .

(٣) سورة التحريم ، آية : ١٢ .

هل كان إعجاز عيسى أنه عمل من الطين كهيئة الطير ؟ لا . كل واحد يستطيع ذلك . فكأنه حين قال : *(أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله)* . كونه طيراً جاء من النفخة ، وهنا المعجزة . أما الأولى فمن الممكن أن يفعلها أى إنسان .

أو (بإذن الله) راجعة إلى الكل . جائز ، لأنه لايجترىء أحد على أن يصنع كهيئة الطير .

وما دام الطير سيكون طيراً بإذن الله ، فما معناها ؟ معناها : أنها ليست صنعته ، بل هى بإذن الله . . نقول لهم : تعالوا ، إن كنتم فتنتم بهذه ، فكان الأجدر أن تفتنوا بإبراهيم حينما قطع الطير ، ودعاه فجاءه سعيا .

***(وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً)* (١) .**

وإن كانت الفتنة فى أنه من غير أب فكان الأولى أن تفتنوا بآدم ، لأنه لا بأب ولا بأم .

* * *

طب المسيح وطب الأطباء :

ومن معجزات المسيح أنه يبرىء الأكمه والأبرص . لماذا هذان المرضان بالذات ؟ لأنهما من الأمراض المستعصية . فالأكمه هو : الذى ولد أعمى . والأبرص هو أمن به وضح . وهو : ابيضاض بقعة فى الجلد ، وإن كان صاحبها آدم ، أو أسود ، مما يدل على أن لون الجلد له كيماويات فى الجسم تعطيه ، فإذا امتنعت الكيماويات فهذا لونه . وقد عرفوا أن

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

ملونات الجلد عبارة عن غدد اسمها الغدد الملونة ، وما زال علاج هذا المرض عسيراً إلى الآن .

حين جاء المسيح أعطاه الله الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب ، وجاءهم بشيء عجزوا عن علاجه .

وبعض القوم يحاولون أن يقربوا أمر المعجزة إلى العقول ، فيقولون إن المعجزات عبارة عن سبق زمني . أي إن العلم يمكن أن يكتشفها فى زمن مستقبل ، بدليل أنهم زرعوا قرنية العين والقلب وغير ذلك مما لم يكن موجوداً ولا معقولا من قبل .

نقول لهم : لا . المعجزة معجزة إلى أن تقوم الساعة كيف ؟ خذوا كل شيء بأدواته . عيسى عليه السلام كان يبرىء بالكلمة والدعوة ، فمهما تقدموا فهل يبرئون المرضى بالكلمة والدعوة ؟ أم سيأخذون الكيماويات ويدخلون المعامل ، ويصنعون الفحوص ؟

إذن المعجزة هى المعجزة ، وستظل معجزة ، لأن عيسى عليه السلام كان يبرىء بالكلمة .

* * *

إحياء الموتى :

من معجزات المسيح إحياء الموتى . قال الله تعالى على لسانه :

﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ (١) .

والمسألة لم يأخذها هكذا يصنعها لكل طالب . بل أخذها فى وحدات ومرات معدودة ، تثبت صدقه وصدق الآية ، ولاتعمم مدلول المعجزة ،

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

فقد أحيا سام بن نوح مثلا ، وأحيا لعازر ، أفراداً معدودة فقط لإثبات المعجزة ، ولا شيء غير إثبات المعجزات ، وليس لكي يصادم قدر الله سبحانه وتعالى فى الآجال .

ولذلك لم يكن من يحيي بعد الموت يعيش طويلا ، ويعود إلى حركته فى الحياة ، فسام بن نوح مثلا ، قام ، وتكلم ببضع كلمات ، ثم مات ثانياً .

* * *

وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون :

هناك قضيتان فى هذه المعجزة ، قضية عامة . وهى ما يأكله الإنسان بوجه عام ، أى ما يعيش عليه الإنسان من الأطعمة والأشربة . . ولكن كل إنسان فى بيته له خاصية أحداث .

أكل الإنسان فى بيته أمر خاص به هو ، أما الأول فأمر عام للكل . فهو يقول : إنى سأنبئك بخاصية أحداثك ، وأقول لك : أنت أكلت ماذا ، وأنت أكلت ماذا . وليس معقولا أن يكون قد دخل كل بيت ، وعرف منه ذلك .

وكذلك كان يعلم ما يدخره الناس فى بيوتهم . . افرض أن الطعام له رائحة ستظهر خارج البيت ، فما بالك بما يدخرون فى البيوت من أنواع الطعام ؟

بل إن هذه آية من آيات من يعلم مغيبات الأمور .

﴿ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (١) .

لأنه هذه عجائب ، تثبت أن قوة قاهرة فوق الرسول ، تعطيه هذه العجائب والآيات .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

ومعنى الرسول . أى أرسله من هو أعلى منه إلى من أقل منه . والذى يؤمن بالآية هو من يؤمن بإله ، غاية الأمر أننا نريد أن نتثبت أن العلامة من عنده أم لا . أما إن كان غير مؤمن بالله فما الفائدة ؟

* * *

مصدق ومشرع :

قال الله تعالى على لسان المسيح :

***(ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم)* (١) .**

مصدق ، يعنى : ما جئت به مطابق لما جاء فى التوراة . ما بين يديه . ما بين يدى الإنسان هو ما أمامه . وما دام مصدقاً لما بين يديه من التوراة فما ضرورة إرساله إذن ؟

تظهر الضرورة فى قوله تعالى :

***(ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم)* .**

أى فى التوراة . إذن ليس المهم هو التصديق .

وإذا كانت الكتب اللاحقة مصدقة للكتب السابقة . فما فائدة الكتب اللاحقة ؟ فائدة الكتب اللاحقة أمران :

أولا : أنها تذكر من سها عن الكتب السابقة .

ثانيا : أنها ستأتى بأشياء تناسب التوقيتات الزمنية ، تعدل فى بعض الأحكام .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥٠ .

العقائد لاتبديل فيها ، القصص لاتبديل فيه . إنما التعديل فى بعض الأحكام . وهى تحليل بعض ما حرم على بنى إسرائيل . ولله حكمة فيما يحرمه على الناس وحكمة فيما يحله لهم .

إياك أن تفهم أن كل شيء يحرمه الله فهو ضار ، فقد يحرم الله لشيء آخر ، كالأدب مثلا ، وهو الالتزام والتعبد .

لاتقل : ما هو الضرر الذى جعل الله تعالى يحرم كذا وكذا ؟

من الذى قال لك : إن الله لايحرم إلا الضار فقط ؟ هو يحرم الضار وغير الضار ، لحكمة ليست هى دفع الضرر ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ (١) .

فها هى الطيبات حرمها الله تعالى على بنى إسرائيل عقوبة لهم ، وليس للضرر . إذن التحريم ليس ضرورياً أن يكون للضرر .

أما المسيح فجاء ليرفع التحريم عن بعض المحرمات . والتى جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ﴾ (٢) .

ثم أعاد المسيح تذكيرهم بأنه جاء من عند الله بآياته رسولا ، فقال :

﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ .

ومجموع هذه الأوامر التى تقدمت تلفتكم إلى أنى كبشر لا أستطيع أن أجيء بها ، فيجب أن تلتفتوا إلى أن الذى أرسلنى وله طلاقة القدرة فى خلق النواميس جاء بها على يدى .

---

(١) سورة النساء ، آية ١٦٠ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٤٦ .

إن الرسول والمرسل إليهم مشتركون فى أنهم مربوبون لإله واحد ، وهو الذى تولى تربيتهم ، والتربية تقتضى إيجاداً من عدم (بفتح العين والدال) ، وإمداداً من عدم (بضم العين وإسكان الدال) ، وتقتضى رعاية قيومية ، وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيداً عليكم ، ولكن لأنى أنا وأنتم مشتركون فى العبودية لله وحده .

* * *

العبودية لله هى الصراط المستقيم :

والإشارة فى قوله تعالى :

***(هذا صراط مستقيم) (١)**

إلى اجتماع البشر على عبوديتهم لله وحده .

ومعنى *(صراط مستقيم)* . أى غير ملتو ، لأن الطريق إذا التوى فقد انحرف عن الهدف .

ولكى تعرف أن الكل يمشى على صراط مستقيم واحد فانظر إلى الدائرة ، الدائرة لها محيط ، ولها مركز ، المركز هو الذى نضع فيه سن الفرجار لنرسم الدائرة . وبعد ذلك نصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار . فكلما بعدت عن مركز الدائرة اتسع الفرق ، وكلما اقتربت من المركز تلاشت الفروق .

* * *

الاجتماع حول العبودية هو الوحدة :

وكلما كان الخلق جميعاً عند المركز الواحد يتفقون أم يختلفون ؟ بالطبع يتفقون . ومتى يختلفون إذن ؟ يختلفون عندما يبتعدون عن المركز . ولذلك لاتجد الناس أهواء ، ولاتجدهم شيعاً ، إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم ، والمركز الجامع لهم هو العبودية لإله واحد .

حتى فى الأمر الحسى ، إذا نظرت إلى الأقطار تجدها قبل المركز بقليل تداخلت فى بعضها إلى أن يصير شيئاً واحداً لا انفصال بينها أبداً . وهكذا الناس حين يلتقون عند مركز عبوديتهم لإله واحد .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥١ .

ولذلك نجد الدائرة التي نصف قطرها عشرة سنتيمترات تجدها من عند المحيط سنتيمترين ، فإذا وسعتها إلى متر فقد اتسعت .

* * *

منطق عيسى عليه السلام :

ذلك هو منطق عيسى عليه السلام ، منطق عيسى فى المهد أنه قال : إنى عبد الله . وبعد ذلك قضية التكليف ، قضية القمة أنه عبد الله . وقضية الرسالة . وهى نقل مراد الله إلى خلق الله ، حتى يبنوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله .

طبعاً حينما يأتى الرسول بمنهج من عند الله ليحمل الناس جميعاً على سلوك هذا المنهج ، فإنه يحدد حركة حياتهم بافعل كذا ، ولا تفعل كذا .

افعل كذا ، قد يجد فيها مشقة ، لأنها تلزمه بعمل ثقيل عليه ، لاتفعل كذا ، فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه ، والمرء فى الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه ، وعمل يشتهيه فيحب أن يقترب منه .

المنهج يقول : افعل هذا ، ولاتفعل هذا . هناك مشقة فى أنه يفعل كذا ، ومشقة أخرى فى أنه يبتعد عن كذا .

* * *

آفة الناس جهل الهدف :

كل الناس لايحاولون فهم الغاية الأصيلة . فيأتى أنصار الشر ولايعجبهم حمل نفوسهم على مرادات خالقهم . فما يقال : افعلوه . يقولون : هو ثقيل علينا . وما يقال : لا تفعلوه . يقولون : نحن نحبه ، ولا نستطيع تركه .

إذن يحدث انقسام ، لأنهم لم يحددوا هدفهم فى الوجود ، لأن كل حركة تعرف أنها حسنة أو غير حسنة من أنها توصلك إلى هدفك أو لا توصلك . فإن أوصلتك إلى هدفك فهى حسنة ، وإن لم توصلك فهى قبيحة .

إذن الهدف هو الذى يجب أن يعرف . التلميذ يذهب إلى المدرسة ليتخرج ، ويصبح كذا وكذا . هذا هدفه ، ننظر فى سلوكه ، نجده مجتهداً ، فهو إذن يقرب من الهدف ، نجده يكسل ويلعب ، فهو يبتعد عن الهدف . لابد من تحديد الهدف ، لتعرف إذا كان العمل صالحاً أم غير صالح .

وآفة الناس أنهم لايحددون هدفهم ، لذلك يعتبرون غير الهدف هدفا . وماداموا يعتبرون غير الهدف هدفا فإن حياتهم تضطرب .

فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف يريد أن يحقق أكبر قدر من اللذة ، لأنها هى الهدف ، والذى لايعتبر الحياة هى الهدف ، بل يعتبرها مرحلة ، يرى الهدف هو لقاء الله ، والدار الآخرة . وحين يعمل ، يعمل للهدف .

فالأول لايقبل إلا على ما تشتهيه نفسه ، ولا يبعد إلا عما يتعبه ، إذن ما يفسد السلوك هو الجهل بالهدف . وحين يوجد الهدف ننظر فى العمل .

فإن كان يقرب من الهدف فهو الخير ، وإن كان يبعد عن الهدف فهو الشر . يجب أن يعلم الناس أنهم يستقبلون كثيراً من الأحداث بما يناقض الهدف .

ما دام الهدف أن نلقى الله ، فيأتى واحد مات له حبيب ، فلماذا نجده يحزن على وفاته ؟

لماذا يحزن عليه وقد قصر الله عليه الطريق إلى لقائه .

إنه حزين على نفسه ، لأنه سيستوحش منه ، كان يؤنسه ، كان ينفعه ، أما من أجله فلا .

إذا كانت الغاية أن نذهب إلى الإسكندرية ، فمرة أذهب ماشياً ، ومرة أركب حماراً ، ومرة أركب حصاناً ، ومرة أركب سيارة ، ومرة أركب طائرة ، كل ما يقربني من الهدف لا أحزن منه ، إنما أحزن حين أجد صاحبي غير موفق لخدمة الهدف .

يموت شاب فيحزن عليه أهله لأنه لم يتمتع بالحياة ، نقول لهم : إن الله قد جعله يقفز الخطايا ، فما الذي يحزنكم ؟

إن أحسنا استقبال ما يقضي الله به في خلقه عرفنا أنه حكيم ، وأنه رحيم ، وأن كل شيء منه يجب ألا نفهمه خارجاً عن الحكمة .

* * *

مريم ودلالة الذكر والأنثى

ونجيب على سؤال سألتنيه معالى محافظكم ، لأن ورقة أعطيت له من أحد المواطنين بهذا السؤال :

لماذا قال الله تعالى :

(يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) (١) .
ولم يقل : واركعى مع الراكعات ؟ هذا هو السؤال .

وإجابة على هـــذا السؤال نمهــد تمهيداً بسيطاً يشير إلى فلسفة الأسماء ودلالتها على مسمياتها .

والأسماء : ألفاظ تعين مسماها ، والمسميات مختلفة ، فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان . ومنها الأسماء التى تدل على موجودات فى عالم الغيب ، كالجن والملائكة ، وكل ما غيب الله :

وهذه الأسماء تدل على معانيها ، وقد هدى الله سبحانه وتعالى البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، لأنه لولم يعلم آدم الأسماء ، فكيف كان يعبر عن معطيات الأسماء لمسمياتها ؟

إذن فلا بد أن يوجد لكل شيء اسم ، حتى نستطيع حين نتفاهم على الإسم أن نذكر لفظاً واحداً موجزاً .

ولولم يذكر هذا اللفظ الواحد الموجز للدلالة على المسمى ، فكيف كان يفعل الإنسان حين يريد التفاهم على مسمى الجبل ، أيأخذ الجبل بيده ليشير إليه أمامه ؟ أم يكفى أن ينطق بكلمة جبل ، لنستحضر الصورة الخاصة بهذا المسمى ؟

إذن فالأسماء وتعليمها لنا أزاح عنا عبئاً كبيراً من التفاهم ، ولولا ذلك

---

(١) سورة آل عمران آية : ٤٣ .

لما استطعنا التفاهم على شيء إلا إذا واجهنا الشيء وأشرنا إليه . كلمة جبل ، وكلمة صحراء ، وانجلترا ، وأمريكا ، كلمة واحدة تجعلني أستحضر معنى المسمى على الفور ، وتريحني من مشكلة مستعصية لاحل لها إلا مواجهة المسمى ، والإشارة إليه ، حتى يفهم المخاطب ما أريد .

إذن فلابد من وجود الأسماء للمسميات ، وهذه الأسماء فرع وجود الإنسان المتفاهم بها ، والإنسان أصله من آدم ، وكلمة آدم حين نتكلم عليها نجدها مذكرة .

ما معنى مذكرة ؟ وما معنى المؤنثة المقابلة لها ؟

معنى هذا أنه ستكون ذكورة وأنوثة يخرج منهما نسل . إذن فلا بد من التمييز بين نوعين لجنس واحد . فجنس بني آدم منه نوعان : ذكر وأنثى ، ومن هذين النوعين ينشأ التكافؤ .

ولكن العجيب هو أن الله سبحانه وتعالى حين سمى آدم ، ونطقناه اسماً مذكراً ، وسمى حواء ، ونطقناه اسماً مؤنثاً ، جعل الإسم الأصيل الذي وجد منه الخلق « نفس » فقال :

﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ (١) .

نفس واحدة وهي آدم ، مسماة بكلمة نفس ، وهي مؤنثة ، وليس معنى هذا أن التأنيث أقل من التذكير ، وإنما هو دلالة على وضع المسميات في مواضعها الحقيقية فقط .

إذن فمرة يطلق على الإنسان منا كلمة نفس ، وهي مؤنثة ، (خلقكم من نفس واحدة) لاواحد . وحين يتكلم الله تعالى كلاماً آخر يقول :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١ .

(٢) سورة الحجرات ، آية : ١٣ .

الناس مجموع الذكر والأنثى ، فقد سماه مرة بلفظ مذكر ، وسماه مرة أخرى بلفظ مؤنث ، ثم جمعهما هنا .

ولذلك يؤكد لنا الحق أن وضع الأسماء لمسمياتها ، إنما كان لنتعارف بها ، فقال تعالى :

﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (١) .

والتعارف هو كما يكون عند الرجل أولاد كثيرون ، فيسمى هذا باسم وهذا باسم وهذا باسم ليتعارفوا .

والعجيب العجيب في الآية قوله تعالى : ﴿ وجعلناكم شعوباً ﴾ جمع شعب ، وهو مذكر ، (وقبائل) جمع قبيلة وهي مؤنثة .

انظروا إلى قوله تعالى :

﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا ﴾ (٢) .

أما اللائي آمن فداخلات في الذين آمنوا .

ولماذا أدخل المؤنث في المذكر ؟

لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء فرعاً منه ، والفرع يدخل في الأصل ، فالمؤنث يدخل في المذكر ، يدخل معه في الأمور المشتركة في الجنس ، كما في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ (٣) .

وهو رب المذكر والمؤنث أيضاً .

وبعد ذلك في الأمر الخاص بالمرأة أتى بها صريحة في التأنيث :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الحجرات ، آية : ١٣ .
(٢) سورة العصر ، آية : ١ — ٣ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢١ .
(٤) سورة الأحزاب ، آية : ٣٦ .

وذلك لأن المسألة خاصة بالاثنين . رجل وامرأة ، وتفريق بالطلاق بينهما . وقال تعالى :

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً ﴾ (١) .

وكلها جاءت بلفظ المؤنث .

إذن فهو حين يأتى بشىء يتعلق بالمرأة يأتى باللفظ المؤنث ، وإذا كان المعنى عاماً يشترك فيه الذكر والأنثى يأتى باللفظ المذكر ، كما قال تعالى :

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ (٢) .

وإنما يدمج الله تعالى المرأة فى الرجل لأنها مبنية على الستر والحجاب ، مطمورة فيه ، داخلة فيه .

فإذا قال : ﴿ واركعى مع الراكعين ﴾ (٣) فالركوع ليس خاصاً بالمرأة حتى يقال : اركعى مع الراكعات . وإذا قال : اركعى مع الراكعات ، وهى فى محرابها ، والناس يصلون ، هل تمتنع عن الصلاة لأنه لايوجد راكعات ؟

إذن فقوله (مع الراكعين) أعم لأنه أدخل الراكعات فى الراكعين ، ولو قال : الراكعات ، لم تدخل الراكعين فى الراكعات .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٣٢ .

(٢) سورة غافر آية : ٤٠ .

(٣) سورة آل عمران آية ٤٣ .

ذكر المسيح – وشأنه فى ذلك شأن جميع الرسل – القضية الإيمانية الجامعة المانعة فى قوله تعالى :

﴿ إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه ﴾ (١) .

يعنى : أنا وأنتم سواء فى مربوبيتنا لله الواحـد ، وأنا لم آت إليكم لأتميز عنكم بشىء فيما يتعلق بالعبادة . . نحن سواء فيها . . فهو ربى وربكم . . والصراط المستقيم هذا هو . . وهو أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية .

معنى الصراط هو ما يوصل إلى الغاية . . لأن الطريق يستلزم الغاية ، فإذا قيل : هناك طريق ، فلا بد أن تتحدد الغاية أولا . . والغاية هى عبادة الله .

* * *

حقيقة العبادة :

العبادة هى : إطاعة العابد ، لاتظنوا أن العبادة هى الصلاة والصوم والزكاة والحج وما أشبه ذلك من الأفعال ، كما يقول خصوم الإسلام . لا . إنما هذه الفرائض وسائل شحن للطاقة الإيمانية فى النفس والقلب ، ليقبل الإنسان على العمل الخاص بعمارة الحياة .

العبادة : كل عمل يؤدى إلى سعادة الناس وعمارة الكون كما يريد الله سبحانه وتعالى . . العبادة بالمعنى الضيق نقولها فى الفقه . نقول : باب العبادات ، وباب المعاملات . . ولكن الحقيقة أن كل شىء يأمر به الله تعالى هو عبادة . إلا أن العبادة منها مايصلك بالمعبود ، لتأخذ الشحنة الإيمانية

(١) سورة الزخرف ، آية : ٦٤ .

منه ، ومنها ما يصلك بالحياة على هدى ونور مما استقبلته من تلك الشحنة الإيمانية . استمع إلى قوله تعالى :

﴿إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ (١) .

فقوله تعالى : (اسعوا) أمر ، وهذا الأمر يوصلنى إلى أين ؟ يوصلنى إلى الصلاة . ويخرجنى من أين ؟ يخرجنى من البيع .

وإذا كان الأمر بالسعى إلى الصلاة يخرجنى من البيع ، أفلا يخرجنى من الزراعة ؟ أفلا يخرجنى من الصناعة ؟ أفلا يخرجنى من العلم والتعليم ؟ نعم يخرجنى ، فلماذا خصص البيع إذن ؟

لأن البيع هو قمة النفعية العاجلة ، فالذى يحرث ويزرع ينتظر شهوراً طويلة حتى تخرج الثمرة . أما البيع فثمرته عاجلة . فإذا تركت الثمرة العاجلة فاترك المؤجلة من باب أولى .

ولأن البيع هو مبادلة السلع بأثمانها . والسلع هى النهاية لكل عمل ، ولماذا لم يقل : وذروا الشراء ؟

البيع أدق فى الأداء ، فالمشترى يشترى وهو كاره ، وقد يكون المشترى فى صفقة الشراء ، فيسمع الأذان ، فيتخذ منه ذريعة لترك الصفقة أما البيع فالنفس تحبه ، وتتبعه ، لأن كسب عاجل . والشراء فيه دفع ثمن انتظاراً لكسب ، أما البيع فهو أخذ حاضر وعاجل .

إذن فقد أخرجنى الله من نهايات الأعمال ، وهى مبادلة السلع بأثمانها . وبعد الصلاة قال تعالى :

﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (٢)

---

(١) سورة الجمعة ، آية : ٩ .
(٢) سورة الجمعة ، آية : ١٠ .

هذا أمر ، وذاك أمر ، اسعوا إلى ذكر الله أمر ، وانتشروا فى الأرض أمر ، وهما عبادة .

انظروا إلى الدقة فى قوله تعالى : (فانتشروا فى الأرض) . يعنى : انساحوا فى الأرض ، فى مختلف نشاطات الحياة . . لأن كل حركة من حركات الحياة هى عبادة مأمور بها .

* * *

دعوة المسيح

احتياط المسيح :

لقد حسم المسيح أمر العقيدة ، واحتاط ضد من يفسرون ولادته بلا أب ، وضد ما سيتقولونه عليه فقال :

﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ (١) .

احذروا أن تقولوا عنى شيئاً آخر ، لأن الله ربى وربكم ، ثم جاء بالمنهج وهو الصراط المستقيم .

والله تعالى يقول عن المسيح :

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ﴾ (٢) .

وهذه الكلمة تدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف لابد أن يكون يقظ الأحاسيس ، لأنه حين يأتى بالفكرة — وخاصة الدينية — سيخرج الناس من الظلمات إلى النور .

ولماذا يعيش الناس فى الظلمات ؟ ولماذا لايعيشون فى النور من أول الأمر ؟

يحدث ذلك لأن هناك من يستفيدون من الظلام . وحين يستفيد البعض من الظلام فسيكون هناك ظالم ومظلوم ، فمن أخذ خير الدنيا ، وعربد فيها ، ساعة يسمع كلمة تهديه إلى منطق العدل فإنه لايحبها ، بل يكرهها .

من هنا لابد أن يكون الداعية يقظاً ، لأنه حين يسر أناساً فسيغضب أناساً آخرين .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٥٢ .

إذن فلابد أن يكون يقظاً ، يقظاً بأحاسيسه . وكلمة (أحس) تدل على الحواس الخمس . النظر والسمع والذوق واللمس والشم ، فالمراد إذن أن تعمل كل الحواس ، حتى يدرك الداعية من الذى يرتجف حين يسمع دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن . . من الذى تتغير سحنته ، ومن الذى يستبشر .

إذن لابد أن يكون الداعى كله أحاسيس ليدرك الحقيقة . فلما واجههم المسيح بمنهجه أحس أن أنصار الظلم والبغى والظلمات لايعجبهم كلامه . أحس منهم الكفر . كان كله يقظة وانتباهاً .

ماذا صنع بعد ذلك ؟

أراد أن ينتدب جماعة يعينونه على الدعوة فقال :

(من أنصارى إلى الله)

المسألة تتطلب معركة ، وهذه المعركة تتطلب تضحية ، تضحية بالنفس وتضحية بالنفيس ، فلابد أن يستشير من يجد فى نفسه الاستعداد للعون . لم يقل : يافلان ويافلان ، ساعدونى . وإنما هو يريد أن يكون المعين له معيناً بإقبال نفسى . فقال :

(من أنصارى إلى الله)

والأنصار جمع نصير ، والنصير هو المعين لك على بغيتك ، على تنفيذ الغاية ، أى : من ينصرنى نصراً تصير غايته إلى الله وحده ، لا إلى أهواء البشر ، لأنه قد يدخل معه واحد من أهل الغنيمة ، أو واحد من أهل الجاه ، ولكنه يريد النصرة لله وحده .

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعه أهل المدينة عند العقبة قال : « خذوا وأنأخذ » . فقالوا له : إذا نحن وفينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ أقال لهم : إنكم ستمتلكون الأرض ؟ أقال لهم : ستنتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال لهم : « لكم الجنة » .

وذلك لأنه لو قال لهم : إنكم ستملكون الأرض ، أو تنتصرون على عدوكم ، فربما مات واحد منهم ولا يرى هذا الجزاء ، ومن هنا ردهم إلى الجزاء الذى يراه كل إنسان : وهو الغاية الأخيرة .

أنصار المسيح :

إذن المسيح حين قال : (من أنصارى إلى الله) فمعنى هذا : من يعيننى معونة غايتها الله . وهل هذا هو المعنى الذى تعطيه الآية فقط ؟

لا . إنما آخذ المعنى المناسب لعقلى ، أما مرادات الله تعالى من كلامه فلا تتناهى ، ولا تدخل تحت الحصر .

والنصير ينصر ، والنصر يكون بالإيمان ، كيف ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (١) .

فمنا نحن نصر الله ، ونصر الله بتطبيق دينه . ومن الله النصر للمؤمنين الناصرين له ، فالنصر مرة يكون من المؤمن لربه ، ومرة يكون من الرب لمربوبه . والمسيح يقول : من الذى ينصرنى حتى يكون منضماً إلى الله فى النصر :

عندى معسكران ، المعسكر الأكبر هو الله ينصرنى . فأنتم انضممتم إلى الله . إذن من أنصارى إلى الله ؟ من يكون نصيرى مع الله ؟ هذا معنى : والمعنى الثانى أن أفرض (أنصارى إلى الله) بمعنى ينضم إلى غاية هى الله : والعبارة تصلح للمعنيين : نصر من الله للمؤمن ، ونصر من المؤمن لله :

وكان أنصار المسيح هم الحواريون ، حيث قال تعالى :

﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ (٢) .

(١) سورة محمد ، آية : ٧ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٥٢ .

وكلمة الحوارى مأخوذة من الحور ، وهو البياض . وهم قوم أشرقت في وجوههم سيما الإيمان ، حتى صاروا منيرين بالإيمان ، ونورهم هذا لا يعنى البشرة البيضاء ، وإنما يعنى إشراقة الإيمان فى نفوسهم .

ولماذا يكون للإيمان إشراق فى النفوس والوجوه ؟ حتى لو كان المؤمن أسود اللون ، فإنك لا تفقد فيه نور الإيمان على وجهه ؟ .

لأن الإنسان مكون من أجهزة ، والأجهزة من ذرات ، وكل جهاز له مطلوبات . فساعة تتجه الأجهزة فى مطلوباتها إلى ما أراده الله يكون هناك انسجام بين الأجهزة جميعاً . وحين تنسجم الأجهزة تصبح النفس منيرة ، أما إذا اختلفت الأجهزة باختلاف مطلوباتها وغاياتها ، فهذا يريد كذا ، وذاك يريد كذا وهـــذا يريد أن يعربد ، وهـــذا يريد أن يطمئن ، فإن الأجهزة تتصارع ، ويظهر أثر هذا الصراع على الوجه ، فتراه مظلماً مكفهراً .

أو إن الحواريين قوم بيض المعانى ، ومعانيهم بيضاء مشرقة . هذا جائز أيضاً .

والنبى محمد صلى الله عليه وسلم سمى بعض صحابته حوارى رسول الله ، كالزبير بن العوام رضى الله عنه ، وهو من اصطفاه ليكون معه .

* * *

خصائص الدعاة :

وأنصار الله الذين هم الحواريون ، والدعاة إلى منهجه قالوا :

﴿ نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ (١) .

أى ننضم إلى الله ناصرين للمنهج . إذن لابد أن يعرفوا المنهج ، وهم قالوا : نحن نعرف مطلوبات الله منا . وهى : الإيمان .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥٢ .

والإيمان هو : اطمئنان القلب إلى قضية ما . . ولو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسلكه سيوصلنى إلى مطلوبى ما سلكته . لو لم أعرف أن المذاكرة توصلنى إلى النجاح ما ذاكرت ، هذا هو المعنى العام .

لكن إذا أطلق الإيمان مع اطمئنان القلب إلى قمة القضايا وقضية القضايا وهى الإيمان بالله ، فلابد من معرفة المنهج كله .

والحواريون قالوا : نحن نعرف أسلحة النصير إلى الله . قالوا : (آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون) .

لأن المفروض أن يبلغ الرسول بلاغه عن الله ، فيشهد عليهم كما قال تعالى :

﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ (١) .

جاءوا بالإيمان أولا ، ثم أشهدوا أنهم مسلمون ثانيا ، لأن الإيمان شيء عقدى فى القلب . أما الإسلام فهو الخضوع للأحكام .

مسلمون لمطلوبات الإيمان ، وهى الإسلام ، قل لنا افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

نحن آمنا ، وما دمنا آمنا بالله فقد آمنا بمن جاء يبلغنا عن الله . فالمطلوب منك أيها الرسول أن تشهد أننا مسلمون والرسول لا يشهد إلا إذا بلغ كل الأحكام . قال الله تعالى :

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (٢) .

قد يكون الإيمان إيماناً بشيء سابق ، أما نحن فقد آمنا بالجديد الذى جاء به عيسى عليه السلام .

إذن فكل رسول جاء بشيء من الله ، والرسول الذى يجيء بعده يبلغ شيئاً آخر ، والعقائد لا تغيير فيها ، والأخبار لا تغيير فيها ، والقصص لا تغيير فيه . أما الأحكام فهى التى يتعلق بها التغيير .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٥٣ .

خصائص الاتباع :

وكلمة **(آمنا بما أنزلت)** تدل على شيء منزل من علو إلى أدنى . ونحن حين نستقبل التشريع بالتقديس نستقبله هكذا لأنه جاء من أعلى إلى أدنى . والله سبحانه وتعالى حين ينادى من آمن به ليستمع إلى مناهج الإيمان يقول :

***(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم)* (١) .**

يعنى : ارتقوا وخذوا من الله . لا تبقوا فى حضيض الأرض . ومعنى حضيض الأرض : أهواء النفوس ، وآراء البشر . فهذا نزول ، والله يريد منا أن نتعالى إليه . أى نرتفع من مناهج الأرض إلى منهج السماء .

والخاصية الأخرى من خصائص الاتباع هى الاختيار والاقتناع .

فالمتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا ، ليكون إتباعه إياه صادراً عن قيم نفسه ، لأن هناك إنساناً يرغم إنساناً آخر ليمشى معه فى طريق ، ولا يصح أن يقال فى هذا : إن فلاناً اتبع فلاناً .

لأن معنى اتبعنى أى صار تبيعاً لى بمحض إرادته ، ومحض اختياره ، لأنه إن كان بالقسر والقهر يكون متبعاً له قالباً لا قلباً . القالب هو الذى اتبع ، أما القلب فلا .

ولذلك قلنا : إنه من الممكن أن واحداً يمسك سوطا لآخر ويقهره على السجود له فيسجد ، وهو هنا أخضع قالبه ، أما قلبه فلا .

فالإكراه لا يخضع القلب ، وإنما يخضع القوالب . وكذلك قال الله سبحانه وتعالى لرسوله :

***(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين)* (٢) .**

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٥١ .

(٢) سورة الشعراء ، آيتا : ٣ ، ٤ .

أى : لا تظن أن مسألة إخضاعهم مستعصية علينا بالآيات التى تنزل فتخضع أعناقهم . لكن الله لا يريد أعناقاً ، بل يريد قلوباً ، يريد من يأتيه طواعية واختياراً ، يأتيه وهو قادر على ألا يأتيه ، يريده طليقاً فيقبول له تعال فيقبل عليه .

والخاصية الثالثة أنهم لا يريدون الاتباع فقط بل يريدون أن يشهدوا قالوا : (فاكتبنا مع الشاهدين) .

أى : لن نتبعك فقط ، ونخوض معك معركة الدعوة فقط ، بل سنحمل بعدك رسالتك . نشهد على أننا بلغنا رسالتك . ولذلك قلنا : إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد كلفت وصل الرسالة المحمدية .

(لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)

أى امتداداً لرسالته فيكم .

ولذلك لن تكون رسالات بعدك يامحمد ، وإنما الله ائتمنكم على هذه المهمة . فلا رسول بعد محمد .

* * *

المكر السيء والمكر الحسن :

الأشياء التى يدركها العقل مسماة ، ولها مسميات ، وهذه المسميات تكون أولا بالحس ، لأن الحس هو أول ما يدرك الأشياء من الإنسان ، ثم تأتى المعانى .

والمكر نوع من الشجر ، هناك نوع من الشجر تجد فروعه ملتفة حول بعضها ، بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة منها إلى أصلها من الفروع ، ملفوفة ، كثيفة ، هذا هو معنى المكر . أخذنا منها المكر من الرجل ، وهو الرجل الذى يلف ويدور فى معاملتك .

أما إذا كان يلف عليك ليعرف حقيقة من الحقائق فهى الحيلة وليس المكر ، كالقاضى الذى يكثر من الأسئلة ويدور ويلف على المتهم ليعرف الحقيقة .

إن كان اللف بقصد الضرر فهو المكر ، وإن كان لغير الضرر فهو الحيلة . ولذلك قال الله تعالى :

***(ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله)* (١) .**

إذن هناك مكر حسن ، وهناك مكر سيء . وقال تعالى :

***(ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)* (٢) .**

أى هناك مكر للخير ، ومكر للشر . . ولماذا يمكر الماكر ؟

الذى يمكر يمكر ليدارى نواياه ، فقد يحب وهو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك ، يزين لك مثلا أن تخرج معه إلى مكان ما ، ويزين لك محاسن المكان ليشجعك على الخروج إليه حينما تهدأ الأنفاس ، وينقطع الناس ، وفى الوقت نفسه يصنع لك كمينا ، ليطلق عليك النار ويقتلك ولا يراه أحد .

هذا مكر أراده ليوقع بك ضرراً .

إذن فمن أسس المكر التبييت ، هو حب يخدع ليوقع فى ضرر ، ما دام يريد أن يبيت . وهذا التبييت يريد من صاحبه ذكاء عظيما ، فربما كان من تبيت له ذكياً فيكشف أمرك .

والمكر يدل على الضعف ، لأن القوى لا يمكر ولا يبيت ، ولذلك لما قالوا : إن كيد المرأة عظيم كما جاء فى القرآن الكريم قلنا : إن هذا الكيد العظيم دليل على الضعف ، لأن القوى لا يخادع .

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٤٣ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٣٠ .

القوى حين يظفر بخصمه فمن الممكن أن يطلقه ، لأن قوته تستطيع اللحاق به فى أى وقت . أما الضعيف فحين يملك قوياً فإنه يقول : هذه فرصة لا تتكرر ، وقال الشاعر :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك فرصة الضعفاء

ولو لم يكن ضعيفاً لواجه خصمه دون تعب ولا مكر .

ومن يمكر يعلم أن من أمامه لا يستطيع أن يمكر ، فإن علم منه العقل والذكاء حسب له ألف حساب .

وما دامت المسألة تبييتاً ، فمعناه أن تعلم شيئاً يخفى على الغير ، فإذا أراد خصوم المنهج الإلهى أن يمكروا فعلى من يمكرون ؟

هل الرسول وحده فى المعركة ، أم الله سبحانه وتعالى هو القاهر فوق العباد ؟

(والله يكتب ما يبيتون) (١) .

والله سبحانه وتعالى حين يبيت لكم شيئاً ، فلن تستطيعوا أن تكتشفوه ، فالله خير الماكرين .

وساعة تجد وصفاً لا يوصف الله به فاعلم أنه جاء للمشاكاة . فما دام هذا مكراً وتبييتا فالله تعالى يمكن أن يفعل هذا دون أن تفطنوا إليه ، لكن أسماء الله تعالى توقيفية ، فإذا وجدت فعلا لله فلا تشتق منه وصفاً ، ودع الفعل يقابل الفعل من البشر . فحين يقول الله تعالى :

(يخادعون الله وهو خادعهم) (٢) .

فإياك أن تقول إن من أسماء الله تعالى المخادع أو الماكر ، فإذا رأيت

---

(١) سورة النساء ، آية : ٨١ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٤٢ .

فعلا من الله جاء فى مقابلة فعل من البشر ليدلهم على قصور أفعالهم بالنسبة لأفعاله ، فاعلم أنه جاء للمشاكلة فقط ، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يمكروا به . ولا تشتق منه وصفاً . بل يظل الفعل فعلا .

وخير الماكرين يدل على أن هناك مكراً فى الخير كثيراً . . وجاءت هنا لأنهم سيدخلون معركة . ألم يقل : (من أنصارى إلى الله) وكيف يدخلون معركة وعيسى لم يجىء ليحمل السيف لكى يحمى عقيدة ، وإنما جاء واعظاً ليدل الناس على العقيدة .

* * *

السيف و العقيدة :

وهل النصرة تكون بالسيف فقط ؟ لا . بل تكون النصرة بالحجة . وبالعقل ، ونحن نعلم أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يحارب فى سبيل نصرة العقيدة ، وإنما كانت السماء هى التى تتولى تأديب المخالفين :

***(فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا)* (١) .**

ولم يجىء قتال فى بنى إسرائيل إلا حين طلبوا هم أن يقاتلوا فقالوا :

***(ومالنا ألانقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا)* (٢) .**

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم طلب منها أن تحمل السيف لتؤدب به من يحولون دون وصول العقيدة إلى الناس ، ليحمى منطقة الاختيار فى النفس الإنسانية ، لا ليفرض عقيدة . ليرفع أيدى الطغاة عن الناس حتى يختاروا مايريدون .

والإسلام لم ينتشر بالسيف كما يقول أعداؤه ، فلقد بدأ الإسلام بالضعفاء الذين كانوا يفرون بدينهم إلى الحبشة . من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن . من الذى حمل السيف ليكره من آمن أولا ؟

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٦ .

قضيـــة . . . وحجـــة

ضمان اليقين :

آيات ذكرها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه الكريم ، لتطمئن القلوب إلى الحق الذى جاء من الحق سبحانه وتعالى . فقال :

﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ (١) .

والإشارة إلى الأحداث التى تتصل بمريم والمسيح ، من امرأة عمران ، ومريم ، وعيسى عليه السلام ، وكل واحد من هؤلاء يمثل قضية عجيبة ينخرق فيها ناموس الكون ، فهى آيات من الله ، أى عجائب .

وبعد ذلك نقلت إلينا هذه الآيات والعجائب من واقع أحداث عاصرها أناس وعاشوها ، ورأوها .

ثم نقلت إلينا فى قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فى الذكر الحكيم .

إذن فاطمئنوا إلى أن ما وصلكم عن طريق الذكر الحكيم ، وهو القرآن ، إنما حكى واقعاً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبذلك نضمن صدق الآيات التى جاءت فى الذكر الحكيم بواقع الآيات التى عاصرها الناس وعاشوها .

* * *

مادية اليهود :

ثم يعرض لنا الحق سبحانه وتعالى قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وقضية سيدنا عيسى عليه السلام قضية يجب أن يتنبه إليها العقل تنبهاً جديداً ،

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥٨ .

هو أن نعرض وجهة نظر الذين وضعوه فى موضع غير الموضع الذى أراده الله ، ووجهة نظر الذين وضعوه بالموضع الذى أراده الله .

فالمسألة ليست انتصاراً منا فى الدنيا على فريق يقول كذا ، وليست انتصاراً لفريق من أهل الدنيا علينا يقول كذا ، وإنما هى مسألة لها عاقبة تأتى فى الآخرة ، فمن المهم أن نصفيها تصفية تصححها ، وتظهر الحق فيها ، حتى لا يظلم أحد من المجاهدين نفسه .

وسيدنا عيسى عليه السلام جاء على دين اليهودية ، أو طرأ على دين اليهودية ، ودين اليهودية حرف من اليهود تحريفاً ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، ويكاد يطغى على عقل اليهود وإيمانهم ويقينهم فى قضية الغيبيات ؛ فهم ماديون لدرجة أنهم قالوا لموسى عليه السلام :

(لن نؤمن لك حتىٰ نرى الله جهرة) (١) .

إذن فعظمة الحق أنه غيب ، لأن لو كان مشهوداً محسوساً لحدد وحيد ، وما دام قد حدد وحيد ، فإنه سيخلو مكان فى ملكه هو منه هو — إذن فكون الله غيباً هو الجلال والكمال فيه .

لقد صور اليهود الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقيتات حياتهم وهى الطعام ، أرادها الله لهم غيباً يريحهم فى الدنيا ، فأرسل عليهم المن والسلوى ، غيباً من عند الله ، لم يجتهدوا فيه ، ولم يستوردوه ، ولم يستنبتوه ، ولم يعرفوا كنهه ، إذن فهو غيب ، ومع ذلك تمردوا على الغيب ، مع أنه رزق ساقه الله إليهم ، وقالوا لموسى عليه السلام :

(ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) (٢) .

يعنى طلبوا الأمور المادية المعروفة لهم ورفضوا الغيبيات ، فكأنهم

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٥٥ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٦١

قالوا : ومن يدرينا أن المن لا يأتى ، ومن يدرينا أن السلوى لا تمر علينا . إذن فهم قوم لا ثقة لهم فى الغيب .

إذن فهم قوم كل أمورهم مادية ، وما دامت كل أمورهم مادية ، فهم فى حاجة إلى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه ، لتخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب .

* * *

الفتنة فى ولادة المسيح عليه السلام :

قانون الماديات أسباب ومسببات ، والحق سبحانه وتعالى أراد أن يخلع عن بنى إسرائيل هذا الفكر المادى ، فجاء بعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذى يأتى عليه البشر ، فجعله من امرأة دون أب .

كان هذا الأمر الذى أريد به أن يزلزل قواعد المادية عند اليهود ، من الممكن أن يستغل استغلالا يبعد الناس عن المادية ، لكن الفتنة جاءت فى هذه أكثر من تلك ، فقالوا ببنوته للإله .

ما هى الشبهة التى جعلتكم تقولون : إنه ابن الإله ؟

إن كان ذلك لأن وعاء الأمومة موجود ، والذكورة ممتنعة ، وأن الله نفخ بالله ، فقلتم : إن الله هو الأب ، فنقول :

لو كان الأمر كذلك لوجب أن تفتنوا فى آدم ، أكثر من أن تفتنوا فى عيسى عليه السلام ، لأن عيسى عليه السلام فيه أمومة ولا أبوة ، وآدم لا أبوة ولا أمومة . إذن الفتنة فى آدم أكثر .

وإن قلتم : إنه نفخ الروح من الله .

قلنا : إن الله سبحانه وتعالى قال فى آدم :

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ (١) .

إذن فالفتنة فى آدم أولى ، فلماذا سكتم منذ آدم إلى المسيح ؟

* * *

الفتنة فى إحياء الموتى :

بعد ذلك نأتى إلى قضية أخرى ، هى قضية وفاته أو توفيه ، لماذا فتنتم فيها إذن ؟

يقولون : لأنه يحيي الموتى :

نقول : ولماذا لم تفتنوا بإبراهيم حين قال له ربه سبحانه :

﴿ فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ (٢) .

فالفتنة فى إبراهيم كذلك .

وموسى عليه السلام ، ألم يجيء بآية هى العصا ، لم يحيي ميتاً كانت له حياة ، بل جعل الحياة فيما ليس له حياة ، وهى العصا بأمر الله . وأصبحت العصا حية تسعى . . إذن فالفتنة كان يجب أن تكون هنا أيضاً كما هى فى المسيح عليه السلام .

* * *

(١) سورة الحجر ، آية : ٢٩ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

قضية إيناس البشر :

قالوا : إن الله تعالى وهو غيب ، أراد أن يؤنس البشرية بصورة بشرية يتجلى فيها ، فجاء بعيسى عليه السلام لذلك .

نقول : هذه القضية نعرضها بالعقل بدون عصبية ، وبدون حساسية ، فالله تعالى قد صنع صورة تعطى صورة الإله .

وعيسى عليه السلام أنتم تقرون وتقــولون : إنه كان طفلا ، ثم تدرج فى المراحل ، حتى صار كبيراً .

﴿ويكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ (١) .

﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا﴾ (٢) .

فأى صورة من صور حياته المرحلية تمثل الله سبحانه وتعالى لتؤنس البشرية ؟

إن كانت صورته وهو طفل ، فقد نسيتم صورته وهو فى دور الكهولة ؟ فالله على أى صورة من هاتين الصورتين إذن ؟
أم هو على كل هذه الصور ؟

إن كان هو الله على كل هذه الصور ، فالله على هذا أغيار ، أى يتغير من طفل إلى فتى إلى كهل .

ثم نقول لهم :

الله أراد أن يجعل صورته فى بشر ليؤنس الناس بالإله ، فما هى المدة التى عاشها المسيح فى الدنيا بين البشر ؟ ثلاثون سنة ، إذن الله قد آنس الناس بنفسه ثلاثين سنة فقط .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٦ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٢٩ .

وكم عمر الكون قبل المسيح ؟ إنه ملايين السنين .

فى هذه الملايين من السنين الماضية ، ترك الله خلقه بلا إيناس ، وبدون أن يبدو لهم فى صورة ، ثم ترك خلقه بعد المسيح بلا صور ، ورب مثل هذا رب ظالم . ظالم لأنه آنس خلقه ثلاثين سنة ، وترك الناس قبل ذلك وبعد ذلك بدون إيناس ولا صورة بشرية .

* * *

قضية الصلب :

أنتم تقولون : إنه صلب . وأنتم معذورون ، لأن الله سبحانه وتعالى عذركم ، انظروا إلى أدب القرآن حين عرض لهذه القضية فقال سبحانه وتعالى :

﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ (١) .

جعل لهم عذراً فى أن يقولوا : صلب ، أو قتل . وكان عليهم أن يتلمسوا فى الإسلام حلا لهذه المشكلة ، فجاء الإسلام ليقول : (وما قتلوه وما صلبوه) .

وذلك لأن الصلب فيه قدرة من الصالب على المصلوب ، فكيف ينقلب الإله مقدورا عليه من مخلوق ؟

حين نقول : إنه لم يصلب فإننا نكرمه ونجله ، فالإسلام جاء ليصفى هذه العقائد كلها ، حتى عند الناس الذين حرفوها .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٥٧ .

المباهلة

هذه القضية الجدلية حدثت أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحق سبحانه وتعالى يعرضها علينا ، ليصفي المسألة ، وليخرج المسلمين واليهود والمسيحيين من هذه البلبلة .

هذه مسألة شغلت الناس ، وهناك مودة بيننا ، في أننا نشترك في الاعتراف بالسماء ، وكان لهم جدل مع اليهود ، ولهم جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهما معاً جدل مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

اليهود يقولون : ليست النصارى على شيء .

والنصارى يقولون : ليست اليهود على شيء .

واليهود يقولون : إبراهيم كان يهودياً .

والنصارى يقولون : إبراهيم كان نصرانيا .

هذا هو الجدل بينهما . أما الجدل المسيحي فيظهر واضحاً في قضية وفد نجران إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

لما جاء هذا الوفد إلى المدينة ، وكان فيهم السيد ، والعاقب ، والأسقف وغير هؤلاء من كبراء الملة النصرانية ، أرادوا أن يتكلموا في مسألة عيسى عليه السلام ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقولون في عيسى ؟ فقالوا قولهم . فقال لهم رسول الله : كذبتم . هو عبد الله ورسوله . ثم قالوا له : أيوجد ابن بلا أب ، فنزلت الآية :

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب قال له كن فيكون ﴾ (١) .

والحجة في آدم أقوى ، لأن المسيح بلا أب ، أما آدم فبلا أب ولا أم .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥٩ .

ثم قال لهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : أتعلمون أنى رسول الله ، وأنى نبى هذه الأمة ؟

فقالوا : أنظرنا غداً نتكلم فى هذه .

فلما جاءوا من الغد قال لهم : آمنوا ، فلم يؤمنوا .

وحين رفضوا الإيمان ، ورفضوا كلمة الحق فى عيسى عليه السلام ، علم الحق سبحانه وتعالى أن هـــذا الجدل لا ينتهى ، والله سبحانه يريد له أن ينتهى .

والله سبحانه وتعالى يعلمنا الأدب الرفيع فى القرآن حين نريد أن ننهى الجدل بيننا وبين غيرنا فى المسائل الكبرى . فالقرآن حين يعرض لقضية حق فى مواجهة قضية باطل ، فإنه لا يصدم أهل الباطل بأنهم مبطلون من أول الأمر ، بل يقول لهم :

***(وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين)* (١) .**

واحد منا ضال ، وآخر مهتد ، لا نقول نحن ولا أنتم ، لأن قضيتين متناقضتين لا يمكن أن يجتمعا .

هيا نحن وأنتم نخرج إلى مكان ضاح ظاهر ، وليأت كل منا بأبنائه ونسائه ونفسه ، ثم نبتهل إلى الله تعالى أن يجعل لعنته على الكاذب منا أو منكم

هل هناك عدالة أسمى من هذه .

***(فمن حاجك فيـه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)* (٢) .**

ما دمنا سندخل فى متاهات فإن الله يقول : فإن حاجوك من بعد ما

---

(١) سورة سبأ ، آية : ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦١ .

جاءك من العلم ، وهو القضايا الغيبية ، لأن هذه المسائل لا ينهيها جدل وإنما ينهيها واقع ، واقع يرد الأمر إلى الإله الحق .

فقل تعالوا ، ندع نحن أبناءنا وتدعون أبناءكم ، وندع نحن نساءنا وتدعون نساءكم ، وندع نحن أنفسنا ، وتدعون أنفسكم ، لأن هذه هي القرابة القريبة التي تهم كل إنسان حتى لو لم يكن رسولا .

هاتوا أحبابكم الذين يعزون عليكم وهيا نبتهل إلى الله .

والبهلة بفتح الباء وضمها : اللغة . نقول : يارب لعنتك على الكاذب منا .

والذي يستطيع أن يمضي اللعنة هو الإله الواحد ، أو الآلهة المتعددة إن كان أنصار الإله الواحد صادقين لعن الإله الواحد أصحاب الآلهة المتعددة ، وإن كان العكس فالعكس .

إلا أن البهلة لما كانت ضراعة إلى القوة التي تريد أن تتصرف في الكون لتنهي الخلاف ، وهي القوة القاهرة ، صارت البهلة لمطلق الدعاء . نبتهل إلى الله : ندعو الله .

ولما طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك طلبوا منه أن ينظرهم إلى غد . . ثم أرسلوا منهم من ينظر لهم ماذا سيفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . هل هو مستعد لهذا الأمر حقاً ، أم أنه يهدد فقط ؟

ثم وجدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسن والحسين ، ووراءه فاطمة وعلي . إذن فهو مستعد . وحينئذ رفضوا وقالوا : والله ما باهل قوم نبياً إلا أخذوا ، فرغبوا في الهدنة .

ساعة ما نقول : اللعنة منك يا إله يا قادر على الكاذب ، فلن يقبل على المباهلة إلا من كان عنده يقين . . أما من ليس له يقين فلن يقدم عليها . . ولهذا رجعوا عن المباهلة . . وقالوا : نتفق على أنك لا تغزونا ، وندفع لك كذا وكذا .

إذن امتنعوا عن المباهلة . . وامتناعهم عن المباهلة ، وإقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها يدلنا على أنهم غير واثقين ، وهو صلى الله عليه وسلم واثق .

ودعوة الأبناء والنساء فى المباهلة إنما كانت لأنهم كانوا يأخذونهم معهم فى الحرب ، لأنهم أعز شىء لديهم ، وكانوا يخجلون من الفرار ، وللخوف من إذلالهم من بعدهم ، فهم يريدون عند الهزيمة أن يقتلوا جميعاً ، ولا يسلموهم للأعداء .

* * *

وإذا أردنا نحن الآن أن ننهى الجدل فى هذه المسألة فلنفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

***(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)* (١) .**

الحق من ربك . أى : إن الحق جاءك من جهة الربوبية . لا تكن من الممترين ، أى : الشاكين فى هذه القضية . حاجك : جادلك ، وهو يأتى بحجة وأنت تأتى بحجة . والحجة هى : الدليل على المطلوب . والعلم هو العلم الذى جاء من الإله الحق .

* * *

***(إن هذا لهو القصص الحق)* (٢) .**

كلمة القصص ليست تعنى : أحدوثة ، أو حكاية ، هذا هو المراد فى العرف الأدبى الحديث ، حيث يلعب الخيال دوراً واسعاً ، ولو فهموا

---

(١) سورة آل عمران ، آيتا : ٥٩ ، ٦١ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٢ .

للبحثوا لأنفسهم عن اسم لما يكتبونه من روايات غير كلمة قصص ، لأن كلمة القصص لا تعطى لهم المعنى ..

القصص ، من قص الأثر . أى تتبع الأثر . يمشى وراء الأثر حتى يعرف الحقيقة . إذن فالقصة هى تتبع ما حدث ، لا تزيد فيه ، وأنتم تتزيدون بخيالكم .

(وما من إله إلا الله) (١) .. إذا جاء القصص من الإله الواحد ، فاطمئنوا إلى أنه لا يوجد إله آخر يأتى بالقصص (وإن الله لهو العزيز الحكيم) (٢) الغالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم فى تصرفه ..

* * *

(١ ، ٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٢ .

كلمة سواء

لقد تولى وفد نجران عن المباهلة ، وقد علم الله أولا أنهم لن يقبلوا المباهلة ، فقال :

(فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) (١) .

ومن غبائهم أنهم لم يقبلوها ، فصدق الله العظيم فى قوله : (فإن تولوا) .

وإذا انتهت المسألة إلى هذا الحد فنحن لا نريد أن نعزل أنفسنا عنهم ـ لماذا ؟

لأنهم مؤمنون بإله . . مؤمنون بالسماء . . أهل كتاب . قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) (٢) .

كلمة سواء . أى مستوية ، لا نتوءات فيها ، ولا اعوجاج . . وما هى عناصر هذه الكلمة المستوية :

(ألا نعبد إلا الله) (٢) .

وهل يجادل فى هذا أحد ؟

(ولا نشرك به شيئاً) (٢) .

معنى (نشرك) ندخل معه غيره . لماذا ؟ لأن كلمة الشرك ترفضها العقول السليمة ، لأن هذه الشركة على ماذا ؟ هل الإله الواحد قادر على العمل وحده ؟ فان كان قادراً فلا لزوم للشريك . وإن كان الشركاء

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٤ .

سيوزعون العمل فى الكون ، فهذا له كذا ، وذاك له كذا ، نقول : إذا أخذ إله شيئاً من الكون ، وإله آخر شيئاً من الكون ، فالإله الأول ناقص فى العملية الثانية ، والإله الثانى ناقص فى العملية الأولى كل منهما عنده عجز .

﴿ إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ (١) .

﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ (٢) .

ما معنى (أربابا من دون الله) ؟ أن يحلوا لنا ، ويحرموا علينا لأن التحليل والتحريم من الله . . لا يحرم ولا يحلل إلا الله .

ولكنهم تولوا أيضاً ، وقرر القرآن الكريم ذلك فقال تعالى :

﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (٢) .

وهذا دليل على أنهم لن يقبلوا . لماذا يرفضون الكلمة المستوية إذن ، ما دامت منطبقة على متطلبات العقل السليم ؟

لأنهم يريدون أرباباً ، ويريدون شركاء ، إذنهم لايصلحون لقضية الإيمان فجمال قضية الإيمان فى أن مصدر الأمر واحد ، أى : إن حركاتنا كلها صادرة عن إرادة إله واحد ، لا إرادة إله يقول افعل ، وآخر يقول لا تفعل ، لأنه إذا كان الحال هكذا ، فتلك هى الأهواء ، والحق يقول :

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ﴾ (٣) .

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، أى لا نأخذ افعل ولا تفعل إلا من الله الواحد ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا يحلون لنا ويحرمون من دون الله ، لأن مصدر التحليل والتحريم هو الله وحده ، ولا نشرك بالله شيئاً .

---

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٩١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية : ٧١ .

فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . أى : لا نعبد إلا إلهاً واحداً ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

تلك شهادة ، لأن الإسلام هو الذى جاء بالأمر المستوى الذى لا نتوء فيه .

* * *

دين إبراهيم الخليل

لقد وصلت هواية الجدل بأهل الكتاب إلى مخالفة البديهة العقلية التى لا يمكن أن يجهلها إنسان . وقد لامهم القرآن الكريم على هذا النوع من الجدل فقال تعالى :

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ (١) .

كان اليهود يقولون : هو يهودى . وكان النصارى يقولون : هو نصرانى . .

وكلمة يهودى لها مدلول هو : من ينسب نفسه إلى موسى عليه السلام ، وكذلك كلمة نصرانى لها مدلول ، هو من ينسب نفسه إلى المسيح عليه السلام .

إن كنتم تريدون أن تقولوا : إنه يهودى كما أنتم يهود ، نقول لكم : لا . . لأن اليهودية جاءت بعد إبراهيم عليه السلام . وإن كنتم تريدون أن تقولوا : إنه نصرانى كما أنتم نصارى نقول لكم : لا ، لأن النصرانية جاءت بعد إبراهيم عليه السلام .

التوراة والإنجيل نزلا بعد إبراهيم ، فكيف ينسب هو إلى واحد منهما ، هل هذا من العقل فى شىء ؟

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ (٢) .

التوراة جادلتم فيها وهى أمامكم ، فلم تجادلون فيما لا تعلمون ، ولماذا لا تسلمون بأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٦ .

ثم يحسم الحق سبحانه المسألة فيقول :

(ماكان إبراهيم يهودياً ولانصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً) (١) ..

كلمة حنيف . تعنى : الدين الصادق المبلغ عن الله . وكل شىء يأتى فى المعانى إنما أصله من المحسات ، بدليل أن الله حين يعبر عن منهجه ومناهج العباد يستعمل كلمتى « الظلمات والنور » فهى أمور محسة .

والحنف : إعوجاج فى الساقين من أسفل ، ثم نقل إلى كل أمر معوج . أى غير مستو .

وهنا نقول : وهل كان إبراهيم معوجاً أم مستقيما ؟

نقول : لا . إبراهيم مستقيم وليس معوجاً . ولكنه جاء على وثنية طاغية ، فالعالم معوج ، فهو منحرف عن المعوج ، وما دام قد انحرف عن المعوج فهو المستقيم .

وذلك لأن الرسل لا يأتون على مجرد فساد، بل يأتون على فساد طاغ وشرس ، لأن الله سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجاً ، يجعل فى كل نفس خلية إيمانية ، هذه الخلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتستقيم ، وتغفو مرة فتنحرف ، والاستيقاظ ينبهنا حين ننحرف .

فإذا أمعنت النفس فى الانحراف بقيت نفوس غير غارقة فى الانحراف ، بل تستيقظ أحياناً فترد المنحرفين عن انحرافهم ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فإذا لم يبق فى الأمة مستيقظ ولا آمر ولا ناه ، فقد عم الفساد وطغى واستشرس ، وهنا ينزل منهج السماء . هنا جاء إبراهيم وغيره من الأنبياء .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٦٧ .

ولهذا ضمن الله لأمة محمد أن تبقى الدعوة فى أهل الإسلام ، لأن الرسالات قد انقطعت .

ولذلك أيضاً قال الله تعالى :

﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي ﴾ (١) .

يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٨ .

محتويات الكتاب